



جمهورية مصر العربية
الأزهر الشريف
قطاع المعاهد الأزهرية
الإدارة المركزية للكتب
والمكتبات والوسائل والمعامل

المطالع العجلاء

للفيف الثالث الثانوى
« أدبى »

تأليف

زكى على سويلم
عبد الحكيم نغناع
عبد الحميد رجب
عبد السميع محمد السنباطى

طبع على نفقة قطاع المعاهد الأزهرية

للعام الدراسى ١٤٢٧ / ١٤٢٨ هـ

٢٠٠٦ / ٢٠٠٧ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقَدِّمَةٌ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :
فقد كان للهداية التي من الله بها علينا - في إعداد كتب المطالعة والنصوص للمرحلة الإعدادية الأزهرية أكبر حافز لنا على تأليف كتب أخرى في المطالعة لأبنائنا طلاب المرحلة الثانوية سائرين على نفس الدرب الذي سلكناه مترسمين خطى هذا النهج القويم الذي أوضح لنا معالمه إمام المسلمين الدكتور عبد الحليم محمود .

وقد راعينا في اختيار الموضوعات التفاوت في السن، والمستوى العلمي والقدرة على الفهم والاستيعاب بين طلاب المرحلتين، كما أننا لم نسرف في مناقشة كل الموضوعات، وضبط كل الكلمات بالشكل وشرحها لغويًا كما فعلنا سابقًا وإنما اقتصرنا على الضروري المستغلق منها .

لم نسرف في كل هذا مخافة أن يكون ذلك مدعاة لاعتماد الطلاب على أعينهم دون عقولهم ، أو يكون صارفًا لهم عن الاعتماد على النفس، وعن الرغبة في التنقيب في المعاجم، والاستزادة من المعرفة التي هيئ بأبنائنا وبناتنا أن يحرصوا عليها في شبابهم قبل أن يشغلوا عنها بأعباء الحياة وشئونها . والله نسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم .

المؤلفون

فضيلة الزهد

عن سهل بن سعد قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس».

في غمار الحياة المادية الطاغية وفي سعار التكالب على لذاتها وشهواتها، وفي طوفان التمتع بها والاستزادة منها، ينبغي للمؤمن أن يرعى حقَّ روحه، ومطالب قلبه، وأن يستضيء بنور التخفف من زينة الحياة الدنيا، والتلطف في الأخذ من متاعها، والحذر من الحرص عليها أو الطمع فيها، وفي مجال هذه العظة ساق إلينا رسول الله عليه الصلاة والسلام هذا الحديث ليكون عبرة وذكرى.

ولقد وردت رواية ثانية لهذا الحديث تقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل يحبني الله عليه، ويحبني الناس عليه فقال: «أما العمل الذي يحبك الله عليه فازهد في الدنيا، وأما العمل الذي يحبك عليه الناس فانظر هذا الخطام فانبذه إليهم».

ويراد بالخطام متاع الحياة الدنيا، ونبذه إليهم إعطاؤه أو تركه لهم. لقد أبان الحديث أن الطريق إلى محبة الله ومحبة الناس هو الزهد في الدنيا والزهد فيما عند الناس، فما الزهد؟ لقد ذكر ابن فارس في كتابه «معجم مقاييس اللغة» أن مادة الزهد تدل على قلة الشيء، وأن الزهيد هو الشيء القليل، وأن الشخص المزهد هو قليل المال، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد قال: «أفضل الناس مؤمن مزهد» أي مقل، وعرف العلماء الزهد في الشيء بأنه الإعراض عنه؛ لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه، والزهد في الدنيا هو عدم التكالب عليها أو الحب لها، وإيثار ما عند الله في الدار

الآخرة على ما في هذه الحياة الدنيا :

«وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» .

ولقد عنى القرآن الكريم عناية واضحة بإثارة الآخرة على الأولى ،
وتفضيل ما عند الله وهو ما لا ينفد - على ما في الدنيا - وهو حائل زائل -
فقال عز من قائل :

«بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى» .

وقال : « تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا ، وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ » .

وقال : « وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ » .

وقال : « إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ » .

وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام لضرب المثل الأعلى في الزهد،
والإعراض عن ملذات الحياة، فقال : «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتي مسكيناً،
واحشرنى في زمرة المساكين» . ولما عرض عليه ربه أن يكون غنياً سأل ربه أن
يجعله في الحياة بحيث يشبع حيناً فيحمده، ويجوع حيناً فيسأله ويرجوه .

وقال صلوات الله وسلامه عليه لأتباعه : «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج،
ولا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافهما، فإنها لهم في
الدنيا ولكم في الآخرة» .

وقال في حديث آخر يصور الزاهد الفاضل الكامل : «أزهد الناس من لم
ينس القبر والبلى . وترك زينة الدنيا وآثر ما لا ينفى على ما ينفى . ولم يعد
غداً من أيامه، وعد نفسه من الموتى» .

وإذا نظرنا إلى مواطن الزهد، وأصوله وجدناه يقوم على ثلاث دعائم :
الأولى منها هى الثقة بالله ثقة تفوق كل ثقة، والثانية هى أن يحسن المرء
احتماله المصيبة ولا يضيق بها ، والثالثة ألا يتأثر بالمدح أو الذم ، ولذلك قال
يونس بن ميسرة : « ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال،

ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تُصَبَّ بها سواء، وأن يكون مادحك وذاؤك في الحق سواء» .

وقال الحسن : «إن من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق منك بما في يد الله عز وجل» .

ولقد قسّم إبراهيم بن أدهم الزهد إلى ثلاثة أنواع : الأول زهد الفرض، وهو الزهد في الحرام، والثاني زهد الفضل، وهو الزهد في الحلال، والثالث زهد السلامة، وهو الزهد في الشبهات .

ومن أوضح ألوان الزهد الجليل النبيل: الزهد في الجاه، والشهرة والسمعة والمناصب، ولذلك قال الأولون: إن الزاهد في الجاه والرياسة أقوى من الزاهد في الذهب والفضة .

والزهدي في الدنيا عند الأقوياء الأصحاء هو أن يقتدروا على كسب حلالها، وأن يحوزوا خيرها، ومع ذلك لا تستحوذ عليهم محبتها، ولا تستعبدهم أموالها، بل قد يجمعون منها الطيب الغرير، وقد يحوزون العظيم أو الكثير، ومع ذلك لا يشحون ولا ييغلون، بل يجودون ويسمحون، وتبسط أياديهم بالذل في وجوه الخير، ومواطن البر .

كما أن الزهد الصحيح الصادق لا يتعارض مع أخذ الحظ المناسب من متاع الحياة الطيب، فالقرآن الكريم يقول: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ»، والرسول عليه الصلاة والسلام قد قال: «حُبُّ إِلَى مَنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ، وَالطَّيِّبُ، وَقِرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ» . وقال أبو مسلم الخولاني : «ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة في الدنيا أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وإذا أصبت مصيبة كنت أشد رجاءً لأجرها وذخراً من إياها لو بقيت لك» ١ .

ونلاحظ أن الحديث الشريف يفهم منه أن تطلع الإنسان إلى نيل حب الناس أمر لا غبار عليه شرعاً، بدليل أن الرسول أرشد الرجل السائل إلى الطريق الذي يصل به إلى محبة الناس ، فلو لم يكن نيل محبة الناس أمراً جميلاً في نظر الشرع لما رسم الرسول طريقه، ومن المعروف أن الذي ينال ثقة الناس ومحبتهم يكون في العادة فاضلاً كريماً ولذلك قيل: إن السنة الخلق أصوات الحق.

ولقد جرت على السنة السلف الصالح كلمات نوابغ في الزهد، وتحديد حقيقته وأصوله، فقال وهب بن ورد: (الزهد في الدنيا ألا تأس على ما فات منها، ولا تفرح بما أتاك منها).

وقال سفيان الثوري: (الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء) . وقال أبو سليمان الداراني : (الزهد ترك ما أشغلك عن الله عز وجل).

وقال الفضيل بن عياض : (أصل الزهد الرضا عن الله تعالى) وقال الحارث المحاسبي: (الزهد يورث الراحة). وقال أحمد بن أبي الخوارى: (من عرف الدنيا زهد فيها، ومن عرف الآخرة رغب فيها، ومن عرف الله آثر رضاه) وقال يحيى بن معاذ: (الزهد ثلاثة أشياء: القلة، والخلوة، والجوع). وقال شاه الكرماني: (علامة الزهد قصر الأمل). وقال محمد بن الفضل: (الدنيا بطنك، فبقدر زهدك في بطنك يكون زهدك في الدنيا).

وقال الحسن: (الزاهد الذي إذا رأى أحداً قال هو أفضل مني). وقال الزهري: (الزاهد من لم يغلب الحرام صبره، ولم يشغل الحلال شكره). وقال ربيعة: (رأس الزهادة جمع الأشياء بحقها، ووضعها في حقها). وقال الشبلي : (الزهد تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء) . ولو رجعنا إلى المأثور الصالح من أدبنا وقصصنا لوجدنا فيه شواهد

للتحريض على الزهد والتجرب فيه، فهذا ابن عبد ربه يذكر في كتابه «العقد
الفريد» عن العتي عن زيد بن نمارة قال: سمعت أعرابياً يقول لأخيه وهو يبني
منزلاً: يا أخي :

أنت في دار شتات	فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كـيوم	صمته عن شهواتك
واجعل الفطر إذا ما	نلت يوم مماتك
واطلب الفوز بعيش الد	هر من طول حياتك

ثم أطرق حيناً ورفع رأسه وهو يقول:

قائد الغفلة الأمل	والهوى قائد الزلل
قتل الجهل أهله	ونجا كل من عقل
فاغتنم دوم السلا	مة ، واستأنف العمل
أيها المبتلى القصو	ر وقد شاب واكتهل
أخبر الشيب عنك أن	ك في آخر الأجل
فعلام الوقوف في	عرصة العجز والكسل
أنت في منزل إذا	حله نازل رحل
منزل لم يزل يضي	ق وينبو بمن نزل
فتأهب لرحلة	ليس يسعى بها جمل
رحلة لم تزل على الد	هر مكروهة القفل

كما روى أن الحجاج خرج ذات يوم فأصحر، وحضر غداؤه فقال:
اطلبوا من يتعدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيا في شملة، فأتوه به، قال
له: هلم .

قال : قد دعاني من هو أكرم منك فأجبه .

قال : ومن ؟ .

قال : الله تبارك وتعالى ، دعاني إلى الصيام فانا صائم .

قال الحجاج : وصوم في مثل هذا اليوم الحار ؟ . قال الرجل : صمت
ليوم هو أحر منه .

قال : فأفطر اليوم وتصوم غداً . قال الرجل : ويضمن لي الأمر أن
أعيش إلى غد ؟ .

قال : ليس ذلك إلى . قال : فكيف تسألني عاجلاً بآجل ليس لك إليه
سبيل ؟

قال الحجاج : إنه طعام طيب .

قال الرجل : والله ما طيبه خبازك ، ولا طبابخك ، ولكن طيبته العافية .

قال الحجاج : بالله ما رأيت كالיום ، أخرجوه عني .

أما الزهد فيما بين أيدي الناس فهو مفتاح الوصول إلى محبتهم، وتقديرهم
وإعجابهم، لأن الإنسان إذا عامل الناس وخالطهم ، دون أن يطمع في أشياءهم؛
يصبح موضع الثقة عندهم، إذ يوقنون أنه لم يخالطهم لغرض أو مرض،
فيزدادون به تعلقاً وإليه انجذاباً وله حُباً، وإذا طمع الإنسان فيما عند الناس،
فقد هان على نفسه، وعلى الناس، لأن الحرص يذل أعناق الرجال ، ولأن
الناس يملون مَنْ يسألهم حاجاتهم ولو كانت خفيفة، والشاعر يقول:

ولو سئل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل: هاتوا ، أن يملوا ويمنعوا

ولقد قلت أعرابية لابنها توصيه : «يا بني سؤلك الناس ما في أيديهم

أشد من الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هنت عليه ، ولا تزال تُحفظ^(١) ،
وتكرم حتى تسأل وترغب ، فإذا ألحت عليك الحاجة ، ولزمتك سوء الحال ،
فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجة السائل والمستول ، فإنه يعطى السائل .
وإننا لندعو هنا بالكلمات التي دعا بها الرسول عليه الصلاة والسلام
فنقول : اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن
طاعتنا لك ما تبلغنا به حبك ، ومن اليقين ما أقون به علينا مصائب الدنيا .
إنك أكرم مستول ، وأفضل مأمول .

(١) تُحفظ « بضم التاء » .

من قضايا العصر

عن سليمان بن يسار رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يبعث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى خيبر فيخبر بينه وبين يهود خيبر^(١)، قال : فجمعوا له حلياً من حلي نسائهم فقالوا: هذا لك، وخفف عنا، وتجاوز في القسم فقال عبد الله: يا معشر يهود والله إنكم لأبغض خلق الله إلى، وما ذلك بحاملي على أن أحيف عليكم ، فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت، وإنا لا نأكلها فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض أخرجه الموطأ .

تناول هذا الحديث على وجازته جملةً من القضايا التي تشد انتباه العالم في هذا العصر، وما تزال مطروحة للبحث ، ومبعثاً للحوار الحاد والجاد، تناول الحديث ناحية من أخلاق اليهود وناحية من أخلاق موظفي الدولة، وما ينبغي أن يتحلوا به من أمانة وعدالة ، كما تناول ناحية من تسامح الدولة الإسلامية في معاملة الأعداء، وبخاصة اليهود، وهذه كلها قضايا هامة تأخذ قسماً كبيراً من جهود الكتاب، في ميادين الكتابة، وخاصة في الميدان العربي، وقبل أن نتكلم عن هذه القضايا نشر بإيجاز إلى شأن خيبر التي وردت في الحديث. إن خيبر بلد، أو مدينة هامة كما يقول المؤرخون قرية من مدينة الرسول، كانت موطناً لبعض اليهود ، وكانت أرضها خصبة ذات زروع وثمار، وكانت منيعة بقلاعها وحصونها، وقد اتخذت وكرًا لمؤامرات اليهود وبث الدعاية ضد الإسلام، ونبي الإسلام، فما أشبهها اليوم بتل أبيب، ولو شئنا لقلنا: إن تل أبيب امتدادٌ لها، وبها وقعت الغزوة المعروفة بين اليهود والمسلمين فكلاهما في

(١) الخرص : التقدير والظن .

البلاء سواءً ، وقد اضطر المسلمون لقتال أهلها ، اتقاءً لشرهم ، وتأميناً لدعوة الإسلام منهم ، وكتب الله للمسلمين النصر عليهم بعد مناورات ذكّية واعية ، ومعارك ضارية دامية ، بذل فيها كل من الفريقين ما استطاع من حول وحيلة ، للظفر بصاحبه ، والغلبة عليه ، وانتهى أمر تلك المعركة بخضوع اليهود بعد أن كسر المسلمون شوكتهم ، واستنزفوا قوتهم ، وبقبول النبي ﷺ مصالحتهم التي عرضوها عليه على أن يقيموا في ديارهم ، ويعملوا بأرضهم ، وأن يكون لهم النصف مما تغل الأرض ، وللمسلمين النصف . ذلك حديث خبير ، أما القضايا التي تناولها الحديث ، فقد تناول الناحية الخلقية لليهود ، وصورهم كواقعهم عبدة للمال يستهينون في سبيله بكل القيم ، ولا اعتداد في سبيل الوصول إليه بمروءة ، ولا شرف ، ولا كرامة ولا قانون ، ولا دين ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم أنهم باعوا دينهم بدنياههم ، واستبدلوا بكلام الله كلاماً من عند أنفسهم ، ونسبوه إليه ، وحرفوا كلمه عن مواضعه بأثمان قليلة ، ولم يبالوا بعذاب الله على جنائياتهم فقال جل شأنه : «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» وقال عز من قائل : «أَلْقَطَعُوهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» وفي هذا الحديث صورة من صور الرشوة التي تفرسوا بها واعتادوها فأصبحت من خصائصهم في حياتهم ، فقد حاولوا أن يستخدموا الرشوة مع عبد الله بن رواحة عامل المسلمين في تحصيل الأموال التي صالحهم عليها رسول الله ﷺ ليتساهل معهم في القسمة ويعطيهم أكثر مما جعل لهم في المصالحة ، واحتالوا أن يجعلوا الرشوة مغرية ، فجمعوا له من حلى نسائهم ما

شاءوا، وعرضوه عليه ليأخذه ، ويرجح لهم في نصيبهم، ولكن خاب فالهم،
وضل سعيهم ، فقد أبت على عبد الله عفته أن يستجيب لما دعوا إليه، وجعل
من رفضه لذلك فرصة لأن يلقي عليهم درساً في مبادئ الإسلام وكان مما
علمهم إياه من ذلك ، وجوب الأمانة في العمل، وأن موظف الدولة يجب أن
يكون له من دينه، وأمانته حصانة من الانحراف مهما كانت حاله من الحاجة،
من الإملاق ، ومهما كانت دواعي الإغراء والتأثير، وجعل من نفسه مثلاً
وقدوة، فابن رواحة في موقفه هذا كان محصلاً ، قليل الأجر، وكان لما أغرى
به من الرشوة ذا قيمة تعدل أجره في سنوات ولكن كانت حصانته بدينه،
وخلقه أعظم لما تعرض له من الإغراء بالمال مهما تعاظمت قيمته، وكثر قدره
ولما علمهم إياه في درسه هذا أن الرشوة حرام على المسلمين، وأنها سحت،
وأكل لأموال الناس بالباطل ، وأنها إذا حرمت في العلاقات الفردية فهي أشد
حرمة في العلاقات العامة بين عمال الدولة، ورعاياها ، لأن الموظف إذ يتخون
في تلك العلاقات فإنما يؤذى بخيائته رعايا الدولة جميعاً ، ومما علمهم إياه في
هذا الدرس، وجوب مراعاة العدالة في المعاملة مهما كانت علاقة المتعاملين
بالعاملين من حب ، أو بغض ، أو اختلاف في الجنس والدين إذ لم تحمل
كراهية ابن رواحة اليهود، واختلافه معهم في الدين على أن يظلمهم في
القسمة، ويستغل سيطرة الدولة وقوتها في الخيف عليهم، وطماهم على أنه
سيعدل بينهم رغم ذلك كله، ورغم أنه أخزاهم برفض رشوقهم وقال تلك
الكلمة الحلوة العذبة التي تقع من النفوس موقع الرضا، والقبول: «يا معشر
يهود، والله إنكم لأبغض خلق الله إلى ، وما ذلك بحاملي على أن أحيف
عليكم» وكأنه في هذا يستلهم قول الله تعالى: «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَى

أَلَا تَعْدِلُوا اءْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» وهذه الكلمة ، وهذا التصرف التزع ابن راحة شهادة اليهود، وإعجابهم بعدالة الإسلام، وأنه بهذه العدالة سيسيطر نوره، ويعم الآفاق ضياؤه ، فبالعدل قامت السموات والأرض، كما قالوا. وإننا لنقف هنا وقفة قصيرة مع موظفى الدولة فى هذا العصر لنقدم هذا النموذج من موظفى الدولة الذين لم يبعد عهدهم بالبداوة، ولم يدخلوا معهداً، ولا جامعةً، ولم يدرسوا لوائح الموظفين، ولا قواعد الإدارة، وكيف تصرف مع معامليه فى أمانة، ورفق وكياسة ، ووقفَ منهم موقفَ المعلم للأخلاق ، والآداب، وقواعد المعاملة من أمانة ، وصدق فظفر باستحسانهم وأنجز عمله، ولم ينخس من حقوق الدولة شيئاً .

وفى الحديث أخيراً مثلاً من أمثلة تسامح الدولة الإسلامية مع أعدائها ، فقد أجاب الرسول طلب اليهود أن يقيموا فى ديارهم ، ليقوموا باستزراع الأرض، وبأخذوا النصف مما تغله، ليستكفوا به فى معاشهم، ولقد كان فيما انتهى إليه الصلح مصلحة لليهود، حيث لبثوا بمقتضاه فى ديارهم، وكفلوا أرزاقهم، ومصلحة للمسلمين أيضاً حيث كانوا فى شغل عن فلاحه الأرض بالنضال فى ترسيخ الدعوة، وكانت خبرتهم باستثمار الأرض دون خبرة اليهود إذ ذاك ، وقد اتخذت معاملة النبي ﷺ لليهود فى أرض خيبر، ومناصفتهم فى غلتها أساساً لأحكام المزارعة فى الإسلام، ودار حولها اختلاف الأئمة حسبما تصوره من ذلك النص وغيره من النصوص التى وردت فى هذا الموضوع، ويعرف تفصيل ذلك من كتب الفروع .

البيان^(*)

قال أبو عثمان : قال بعضُ جهابذة الألفاظ ولَقَّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطيرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضميرَ صاحبه، ولا حاجة أخيه وخلطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه، إلا بغيره. وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال التي تفرمها من الفهم، وتحليها للعقل، وتجعل الخفى منها ظاهراً ، والغائب شاهداً، والبعيد قريباً. وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد، وتجعل المهمل مقيداً، والمقيد مطلقاً ، والجهول معروفاً ، والوحشى مألوفاً ، والفعل موسوماً^(١)، والموسوم معلوماً. وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهارُ المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجح. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ، ويدعو إليه ويحث عليه. وبذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصنافُ العجم .

والبيان اسم جامعٌ لكل شيء كشف لك قناعَ المعنى ، وهتك الحجاب

(*) من كتاب البيان والبيان للجاحظ .

(١) الفعل : ما ليس له شيء يميزه إلا إذا كان موسوماً أي مميّزاً بوسم .

دون الضمير، حتى يُفَضَّى السامع إلى حقيقته؛ ويَهْجَم على محموله كأننا ما كان ذلك؛ البيان؛ ومن أى جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجرى القائل والسامع، إنما هو الفهم والإلهام. فبأى شيء بلغت الإلهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع.

ثم اعلم - حفظك الله - أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ؛ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة.

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العقْد^(١)، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى: «نُصْبَة». والثَّصْبَة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات.

ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بالنة من صورة صاحبها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقذارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السَّارِّ والضَّارِّ، وعما يكون منها لغواً هرجاً^(٢) وساقطاً مُطَرِّحاً.

وقالوا: البيان بَصَرٌ، والمعنى عَمَى. كما أن العلم بَصَرٌ، والجهل عَمَى. والبيان من العلم، والمعنى من نتاج الجهل.

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان

(١) العقْد: قبض اليد أو نشر الأصابع للدلالة على الحساب المراد.

(٢) لغواً: لا خير فيه. هرجاً: زانفاً.

ترجمان العلم .

وقال صاحب المنطق : حدُّ الإنسان : الحى الناطق المبين .

وقالوا : حياةُ المروءةِ الصدق ، وحياةُ الروح العفاف ، وحياةُ الحِلْم العلم ،

وحياةُ العلم البيان .

وقال يونسُ بنُ حبيب : ليس لعمى مروءةً ، ولا لمنقوص البيان بهاء ؛ ولو

حكَّ بياضه أغنانَ السماء^(١) .

وقالوا : شعر الرجل قطعةً من كلامه ، وظنُّه قطعةً من علمه ، واختياره

قطعةً من عقله .

وقال ابنُ التَّوَمِّمِ (الرقاشى) : الروح عماد البدن ، والعلم عماد الروح ،

والبيان عماد العلم .

قد قلنا في الدلالة باللفظ ؛ فأما الإشارة فباليد ، وبالرأس ، وبالعين

والحاجب والمنكَب : إذا تباعد الشخصان . وبالثوب وبالسيف . وقد يتهدد

رافع السوط والسيف ، فيكون ذلك زاجراً ومانعاً ورادعاً ، ويكون وعيداً

وتحذيراً .

والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هى له ، ونعم الترجمان هى

عنه ، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تُغني عن الخط .

(١) أغنان السماء : كان في الأصل : غنان السماء . وهو خطأ لأنه من تعبير العامة .

وبعد ، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحلية موصوفة، على اختلاف في طبقاتها ودلالاتها ؟ ولئى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح ، مرفق كبير، ومعونة حاضرة في أمور يسرها^(١) الناس من بعض ، ويخفونها من الجليس وغير الجليس . ولولا الإشارة لم يفهم الناس معنى خاصاً لخاص ، ولَجَهِلُوا هذا الباب البتة . ولولا أن تفسر هذه الكلمة يدخل في باب صناعة الكلام لفسرتها لكم. وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة :

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيْفَةً أَهْلَهَا إِشَارَةً مَذْعُورٍ وَلَمْ تَكْكَلَمْ^(٢)
فَإَيَقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرَحَبًا وَاهْلًا وَسَهْلًا بِالْحَيْبِ الْمُتَّيِّمِ

وقال الآخر^(٣) :

وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ ————— سَبِّ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ
وَلِالنَّاسِ مِنَ النَّاسِ ————— سِ مَقَابِيْسٍ وَأَشْهَابُ
وَفِي الْعَيْنِ غِنًى لِلـ ————— حَرٍّ أَنْ تَنْطِيقَ أَفْوَاهُ

وقال الآخر :

وَمَغْشَرٌ صَبَدٌ ذَوَى ثَجَلَةٍ تَرَى عَلَيْهِمُ لِلنَّدَى أَدْلَةً^(٤)

وقال الآخر :

تَرَى غَيْنُهَا غَيْنِي فَتَعْرِفُ وَحَيْهَا وَتَعْرِفُ غَيْنِي مَا بِهِ الْوَحْيُ يَرْجِعُ^(٥)

(١) يسرها: في بعض النسخ يسرها ، وليست بذلك .

(٢) مذعور: خالف معرّوب .

(٣) من قصيدة لأبي العتاهية .

(٤) صيد : سادة عظماء لا يلفظون يمينا ولا شمالاً ، زهواً وكبراً .

(٥) الوحى : الإشارة بأى صورة .

وقال الآخر :

وعَيْنُ الْفَنَى تُهْدِي الَّذِي فِي ضَمِيرِهِ وَتَعْرِفُ بِالتَّجَوُّى الْحَدِيثَ الْمَقْمُوسَ^(١)

وقال الآخر :

الْعَيْنُ تُهْدِي الَّذِي فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا مِنْ الْمَحَبَّةِ أَوْ بُغْضٍ إِذَا كَانَا
وَالْعَيْنُ تَنْطَلِقُ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ حَتَّى تَرَى مِنْ ضَمِيرِ الْقَلْبِ نَبِيَانَا
هذا، ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت. فهذا أيضًا بابٌ تتقدَّم فيه
الإشارة الصوت.

والصوت هو آلة اللفظ ، وهو الجوهر الذي يقوم به التقطيع ، وبه يوجد
التأليف ، ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا
بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع والتأليف. وحسن
الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، مع الذى يكون مع الإشارة
من الدلّ والشكل والتفعل، والطنى^(٢)، واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور .
قد قلنا في الدلالة بالإشارة، فأما الخط، فما ذكر الله تبارك وتعالى في
كتابه من فضيلة الخطّ والإنعام بمنافع الكتاب، قوله لنبيه ﷺ : «اقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وأقسم به في كتابه
المنزل ، على نبيه المرسل ﷺ ، حيث قال : «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ» ولذلك
قالوا: القلم أحدُ اللّسانين . كما قالوا: قلّة العيال أحدُ اليسارين. وقالوا:
القلم أبقي أثرًا، واللسان أكثر هذرًا .

وقال عبد الرحمن بن كيسان^(٣): استعمال القلم أجدر أن يحضّ الذهن

(١) المقمّس : الخفى .

(٢) الشكل : الدلال والنج . والفعل : الاختيال والتكسر . والطنى : حين تمشى .

(٣) كان عبد الرحمن بن كيسان من أفاضل المعتزلة ، وكان فيه ورع ، وله فقه وفصاحة .

على تصحيح الكتاب، من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .
وقالوا : اللسان مقصورٌ على القريب الحاضر ، والقلمُ مطلق في الشاهد
والغائب، وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن .
والكتاب يُقرأ بكل مكان، ويُدرس في كل زمان، واللسان لا يعدو سامعه
ولا يتجاوزهُ إلى غيره .

وأما القول في العقد ، وهو الحساب دون اللفظ والخط ، فالدليل على
فضيلته ، وعظم قدر الانتفاع به ، قول الله عز وجل : «فَالْقُرْآنُ الْإِصْبَاحُ وَاللَّيْلُ
السَّكَنُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» وقال جل
وتقدس : «الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» وقال تبارك وتعالى : «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرُ
نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا
بِالْحَقِّ» وقال تبارك وتعالى : «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ
وَالْحِسَابِ» .

والحسابُ يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة ، ولولا معرفة العباد
بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز وجل ذكره معنى الحساب في
الآخرة .

وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فسادٌ جلّ النعم، وفقدانُ
جمهور المنافع، واحتلال كل ما جعله الله عز وجل لنا قواماً ، ومصلحةً ونظاماً .
وأما التَّصْبِيَة، فهي الحالُ الناطقة بغير اللفظ، والمُشِيرَةُ بغير اليد: وذلك
ظاهرٌ في خلق السموات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام،
ومقيم وظاعن، وزائد وناقص .

فالدلالة التي في المواتِ الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق

فالصامت ناطق من جهة الدلالة ، والعجماء معربة من جهة البرهان . ولذلك قال الأول^(١):

سَلِ الْأَرْضَ فَقُلْ : (مَنْ شَقَّ أُمَّارَكَ ، وَغَرَسَ أَشْجَارَكَ ، وَجَنَّى لِمَارَكَ ؟
فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارًا ، أَجَابَتْكَ اعْتِبَارًا) .

وقال بعض الخطباء : (أشهد أن السموات والأرض آيات ذالات ، وشواهد قائمات ، كلُّ يؤدّي عنك الحجة ، ويعرف عنك بالربوبية ، موسومة بآثار قدرتك ، ومعالم تدبيرك ، التي تَجَلَّيْتَ بها لخلقك فأوصلت إلى القلوب من معرفتك ما أنسها من وحشة الفكر ، ورجم الظنون فهي على اعترافها لك وذُها إليك ، شاهدة بأنك لا تُحيط بك الصفات ، ولا تُحدِّك الأوهام ، وأن حَظَّ الفكر فيك ، الاعتراف لك) .

وقال خطيب من الخطباء حين قام على سرير الإسكندر ، وهو ميت :
«الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس»^(٢) .

ومضى دلّ الشيء على معنى فقد أخبر عنه وإن كان صامتًا ، وأشار إليه وإن كان ساكنًا . وهذا القول شائع في جميع اللغات ، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات .

(١) هو الفضل بن عيسى الرقاش الخطيب المتكلم القاص المجيد .

(٢) يروى أنه لما مات الإسكندر وقف أصحابه على تابوته يؤبونه فقال أحدهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس ، وقال آخر : سكنت حركة الملك لي لذاته ، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعًا لفقده . وقال آخر : قد كان سيفك لا يجف وكانت مرابطك لا ترام ، وكانت نعماتك لا تؤمن ، وكانت عطايك يفرح بها ، وكان ضباؤك لا ينكسف ، فأصبح ضوئك قد خمد ، وأصبحت نعماتك لا تخشى ، وعطايك لا ترجى ، ومراقبك لا تمنع ، وسيفك لا يقطع . وقال آخر : انظروا إلى حلم المنام كيف المجلى ، وإلى ظل العمام كيف الأسرى . وقال آخر : ما كان أحوجه إلى هذا الحلم ، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته . وقال آخر : القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة طويت في ذراعين . وقال آخر : أصبح أسر الأسراء أسيرًا ، وقاهر الملوك مقهورًا ، كان بالأمس مالكًا ، فصار اليوم هالكًا .

وأنشد أبو الرُّدَيْنِي الْعُكْلِيُّ فِي تَسْمِ الدُّنْبِ لِلرِّيحِ وَاسْتِنْشَافِهِ وَاسْتِرْوَا حِهِ :
يَسْتَغْبِرُ الرِّيحَ إِذَا لَمْ يَسْمَعْ بِمِثْلِ مِقْرَاعِ الصَّافِ الْمَوْقِعِ ^(١)
وَقَالَ عَنْتَرَةُ بْنُ شَدَّادِ الْعَبْسِيِّ ، وَجَعَلَ نَعِيبَ الْغُرَابِ خَيْرًا لِلزَّاجِرِ :
حَرِقَ الْجَنَاحَ كَأَنَّ لَخْيَ رَأْسِهِ جَلَمَانِ ، بِالْأَخْبَارِ هُنَّ مُوَلِّعِ ^(٢)
وَقَالَ الرَّاعِي (النَّمِيرِيُّ) :
إِنَّ السَّمَاءَ وَإِنَّ الرِّيحَ شَاهِدَةٌ وَالْأَرْضُ تَشْهَدُ وَالْأَيْسَامُ وَالْبَلَدُ
لَقَدْ جَزَيْتَ بَنِي بَذْرِ بَيْنِهِمْ يَوْمَ الْهَبَاءَةِ يَوْمًا مَا لَهُ قُوْدُ ^(٣)
وَقَالَ لُصَيْبٌ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، يَمْدَحُ سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ :
أَقُولُ لِرَكْبِ صَادِرِينَ لَقِيْتَهُمْ قَفَا ذَاتِ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبِ ^(٤)
قَفُّوا خَبَرُونَا عَنْ سَلِيمَانَ إِنِّي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانٍ طَالِبِ ^(٥)
فَعَاجُوا فَأَنْتَوْنَا بِالذِّى أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَّرَا أَثْنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبِ ^(٦)

(١) قال الجاحظ: المِقْرَاع: الفأس التي يكسر بها الصخر، والمَوْقِع: المهدد، يقال: وقعت الحديد إذا حددتها.

(٢) قال الجاحظ: الحرق: الأسود، شبه لحيه بالجلمين لأن الغراب يذير بالفرقة والغربة ويقطع كما يقطع الجللمان.

(٣) يوم الهباءة: يوم من أيام العرب كان لبني عيس على بني فزارة. القود: الاقصاص من القاتل.

(٤) قفا: خلف. وذات أوشال: بقعة ذات مياه تسيل من أعراض الجبال. ومولاك: يعني نفسه. قارب: طالب ماء.

(٥) ودان: قرية قريبة من الجحفة.

(٦) فعاجوا: عطفوا. والحقائب: أوعية الزاد تحمل خلف الرجل. وقد ملأها سليمان بن عبد الملك بفضل عطاياه ومنحه.

وقال علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : قيمة كل امرئ ما يُحسن .
فلو لم تقف من هذا الكتاب ^(١) إلا على هذه الكلمة لوجدناها كافية شافية ،
ومجزية مُغنية ؛ بل لوجدناها فاضلة على الكفاية ، وغيره مقصرة عن الغاية .
وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ،
وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب
نية صاحبه ، وتوقى قائله . فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح
الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ؛ صنع
في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة . ومتى فصلت الكلمة على هذه
الشريطة ؛ نفذت من قائلها على هذه الصفة ؛ أصحابها الله من التوفيق
ومنحها من التأيد ما لو يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابة ؛ ولا يذهل عن
فهمها معه عقول الجهلة .

(١) أى : كتاب البيان والتبيين .

بلاغة القرآن (*)

لدعوة الإسلام براهين ناطقة بأنها دعوة حق، ولسان صدق؛ وأقوى هذه البراهين دلالة، وأملؤها للقلوب يقيناً، ذلك الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على خاتم النبيين؛ ولو لم تقترن الدعوة الإسلامية إلاً به لكان كافياً في إقامة الحجة على أنها الرسالة الشاملة الخالدة.

وللبحث في إعجاز القرآن نواح كثيرة اتجه إليها المفسرون، وعلماء البيان بتفصيل، فكشفوا الغطاء عن كثير من أسرارها ووضعوا أيديهم على جانب عظيم من حقائقها، والناحية التي سنحدثك عنها في هذا المقال هي ناحية بلاغته وحسن بيانه.

بلاغة القول: أن تكون ألفاظه فصيحة، ونظمه محكماً، ودلالته على المعنى منتظمة وافية.

أمّا فصاحة ألفاظه، فبأن يسهل جريانها على اللسان، ويخف وقعها على السمع، ويألفها الذوق غير ناب عنها؛ وهي مع ذلك جارية على ما ينطق به العرب أو يجري على قياس لغتهم.

وأمّا إحكام نظمها، فبأن تقع كل كلمة منه موقعها اللائق بها، بحيث تكون كلماته متناسبة يأخذ بعضها برقاب بعض، فلا يمكنك أن تضع يدك على كلمة وتقول: ليت هذه الكلمة تقدمت عن تلك الكلمة أو تأخرت عنها.

وأمّا انتظام دلالته، فبأن يطرق اللفظ سمعك، فيخطر معناه في قلبك، وحصول المعنى في القلب بسرعة أو بعد مهلة؛ يرجع إلى حال السامع من الدكاء أو بطء الفهم، وحال المعنى من جهة ظهوره، وقرب مأخذه، أو دقته وغرابته.

(*) للإمام محمد الخطير حسين.

ويتحقق انتظام دلالة الكلام بإخراج المعاني في طرق تريكها في أقوم صورة وأعلقها بالنفس، كالتشابه؛ وضرب الأمثال، والاستعارات والكنيات المصحوبة بقرائن تجعل قصد المتكلم قريباً من فهم السامعين.

وأما كون الدلالة على المعنى وافية؛ فبأن يؤدي اللفظ صور المعاني التي يقصد المتكلم البليغ إفادتها للمخاطبين على وجه أكمل؛ بحيث تكون العبارة بمفرداتها وأسلوبها كالمرآة الصافية تفرض عليك ما أودعت من المعاني لا يفوت ذهنك منها شيء. وتريك من المعاني التي يؤديها الكلام غير منقوصة، ما يشمل المعاني التي يراعيها البليغ زائدة على المعنى الأصلي الذي يقصد كل متكلم إلى إفادته، وهي المعاني التي يبحث عنها في علم البيان، وتسمى «مستتبات التراكيب» وكثيراً ما ننبه لها فيما نكتب من التفسير.

هذه الوجوه التي يرجع إليها حسن البيان يتنافس فيها البلغاء من الكتاب والشعراء، ويتفاضلون فيها درجات، فترى كلاماً في أدنى درجة، وآخر فيما هي أرفع منها، ولا تزال تصعد نظرك في هذه الدرجات المتفاوتة، وإلى أن تصل إلى كلام يبهرك بفصاحة مفرداته، ومثانة تأليفه، وانتظام دلالاته، ومهجة معانيه الماثلة ما بين جوانبه.

فإذا أردنا أن نتحدث عن بلاغة القرآن، أتينا إلى البحث عنها من هذه الوجوه التي وضعناها بين يديك، فنظرت في ألفاظه من جهة فصاحتها، وفي نظمه من جهة أخذ كل كلمة الموضع اللائق بها، وفي دلالاته من جهة تصوير المعاني وإيصالها إلى الأذهان من غير تعسف ولا التواء، ثم في جملة من جهة ما تحمل من المعاني التي يستدعي المقام مراعاتها.

أما فصاحة مفرداته ، فلا تمر بك كلمة منه إلا وجدتها محكمة الوضع خفيفة الوقع على السَّمع.

وأما متانة نظمه، فقد بلغت الغاية التي ليس وراءها مطمع! فلا يمكنك وأنت العارف بقوانين البيان، الناظر في منشآت البلغاء يامعان أن تشير إلى جملة من جملة وتقول: ليتها جاءت على غير هذا الوضع؛ أو تشير إلى كلمة من كلماتها وتقول:

لو استبدل بها كلمة أخرى لكانت الجملة أشد انسجامًا أو أصفى ديباجة.

يصل الكلمة بما يلائمها ، ويعطف الجملة على ما يناسبها ، ويضع الجملة معترضة بين الكلمتين المتلازمتين ، أو الجملتين المتناسبتين، فترى الكلمتين أو الجملتين مع الجملة المعترضة بينهما كالبناء المحكم، المتلائم الأجزاء فلا يكاد الفكر يشعر بأنه انقطع بالجملة المعترضة عن الكلمة الأولى أو الجملة، ثم عاد إلى كلمة أو جملة مرتبطة بها ارتباطًا وثيقًا .

وأما انتظام دلالاته على ما يقصد إفادته وإحضاره في الأذهان، فإنك ترى فيه التشابيه الرائعة، والأمثال البارة ، والاستعارات الطريفة، والهجازات اللطيفة ، والكنايات المنقطعة النظير، والتعريض الذي يقتضيه المقام فيكون أقرب إلى حسن البيان من القول الصريح.

وقد يخطر على بالك أن في القرآن آيات مشكلة أو متشابهة ؛ والحق الذي لا مرية فيه أن لا إشكال في القرآن عند من يتدبره بروية، ويأتى إلى التَّفَقُّه فيه وقد تزوّد بقوانين لغة العرب، واستضاء بمعرفة فنون بيائها .

وليس في القرآن متشابه على معنى أن في الآيات ما لا يظهر تأويله للناس، بحيث يتلونه أو يستمعون إليه، ولا يعودون بفائدة علمية أو أدبية .
وأما استيفاءه للمعاني التي يستدعي الحال الإفصاح عنها أو الإيماء إليها، فإنك تنظر في الآية ، وتدبر المعنى الذي سيقى من أجله، فتعود منها ويذك مملوءة من الفوائد التي تقع إليها، من حيث تُقرر شريعة ، أو تُقيم حجة؛ أو تلقى موعظة، أو ترسل حكمة إلى نحو هذا مما تستبين به سبل الرشد، وتنظم به شئون الحياة ، وترتفع به النفوس إلى أعلى درجات الفلاح في دنياها وآخرتها.

بلغ القرآن الطرف الأعلى من حسن البيان، على الرغم من أشياء اجتمعت له ولو عرضت لكلام مخلوق لنزلت به عن المكانة العالية إلى ما هو أدنى .

ترى البليغ من البشر يحسن البيان، ويأخذ لبك بالمنشآت الرائعة، حتى إذا طال به مجال القول وقع فيه أشواطاً واسعة، رأيت في جملة أو أبياته تفاوتاً في البراعة، وأمكنك أن تبصر فيها ضعفاً، وتستخرج بنقدك الصحيح من أواخر كلامه ما أخذ أكثر مما تستخرج من أوائلها .

ولكن القرآن الكريم على طول أمده، وكثرة سُوره، نزل متناسباً في حسن بيانه، كما قال تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً» ، ثم قال: «وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً» .
وترى البليغ من البشر يخوض في فنون من الكلام متعددة ، فإذا هو يرتفع في فن، وينحط في آخر.

ولكن القرآن الكريم يتصرف في فنون كثيرة، مثل الوغظ، وإقامة الحجج، وشرع الأحكام ، والوصف، والوعد، والوعيد، والقصص، والإنذار، وغير ذلك من الوجوه التي تتصل بالهداية العامة، فلا تتفاوت فيها ألفاظه

والمعروف أن القرآن أتى بحقائق أسس بها شريعة واسعة النطاق ، وليس من شأن هذه المعاني أن تظهر فيها براعة البلغاء كما تظهر فيما ألقوه من نحو المديح، والرثاء والتهنئة، والغزل، ووصف المشاهد، إلى غير ذلك مما يطلقون لأفكارهم فيه العنان، فتذهب مع الخيال كل مذهب، وترتكب من المبالغات ما استطاعت أن ترتكب. والقرآن الكريم يعبر عن تلك المعاني التي تستدعي صدق اللہجة وصوغ الأقوال على أقدار تلك الحقائق، فترى الفصاحة ضاربة أطنابها، والبلاغة مرسله أشعتها .

في بلغاء البشر من تحس من شعره، أو خطبته أو رسالته أنه لم يكن يتصنع فيما يتحلى، ذلك أنك تجد في كلامه الجيد ، والوسط، والردىء، وفيهم من تحس فيما يقوله التصنع، وهذا هو الذي يغلب على كلامه المنظوم أو المنثور الجودة في تصوير المعنى، والتعبير عنه بكلام موزون، أو غير موزون .

ولكن القرآن الكريم بالغ الغاية من حسن البيان ، فلا يجد فيه الراسخ في نقد المنشآت البليغة ما ينزل عن الدرجة العليا، بل يحسُّ روح البلاغة التي لا يحوم عليها شيء من التصنع سارية في آياته وسوره، سواء في ذلك تصويره للمعاني، أو نظم الألفاظ الناطقة بها.

ومن مظاهر بلاغة القرآن ، أنه يورد القصة في درجة من حسن البيان، ثم يعيدها في سورة أخرى على حسب ما يقتضيه مقام الوعظ، حتى إذا عقدت موازنة بين حكايتها هنا وحكايتها هناك، وجدتهما في مرتبة واحدة من البلاغة لا تنزل إحداها عن الأخرى بحال. أما البليغ من البشر، فقد يسوق إليك القصة في عبارات أنيقة ، ثم يريد أن يعيدها مرة أخرى ، فإذا هي في درجة من البراعة منحطة عن درجاتها الأولى .

النصيحة الخالصة

المنصور وأحد رعيته

أبو جعفر المنصور من أعظم خلفاء العباسيين^(١) صولةً، وأشدّهم بأساً^(٢)، وأبصرهم بسياسة الملك وتدبير أمورهِ، وكانَ إلى هذا صاحب دينٍ وتقوى ولولا زلات^(٣) أحصاها عليه المنصفون لكان من أعظم الخلفاء .
حجَّ في إحدى السَّنات ، وطاف بالبيتِ ليلاً والنَّاسُ نيامٌ، فسمع رجلاً يدعو الله في ذلِّ وضراعة^(٤)، ويقول: اللهم إني أشكو إليك ظهورَ البغي^(٥)، والفساد في الأرض، والطَّمَع الذي يحول بين الحق وأهله .
فأسرَّعَ المنصورُ إليه، وسأله عما سمَّعه، فقال الرَّجلُ : أنت الذي ظَهَرَ منه الفسادُ والبُغيُ، ودخلَ الطَّمَعُ.

فقال الخليفة: ونحك^(٦) كيف يَدْخُلُ الطَّمَعُ وكل ما أريدُه في قبضتي! .
فأجاب الرجل: وهل دَخَلَ الطَّمَعُ على أحد أكثرَ مما دَخَلَ عليك يا أمير المؤمنين؟ إنَّ الله وكلَّ إِلَيْكَ أُمُورَ المسلمين وأموالَهُم، فأغفلت أُمُورَهُم، واهتممتَ بجمع أموالهم، وأقمتَ بينك وبينهم حجاباً^(٧) واتَّخذتَ وزراءً وأعواناً فجرةً: إن نُسيتَ لم يذكروك ، وإن أحسنتَ لم يُعينوك ، وقويتَهُم على ظلم الناسِ . بالأموالِ والرجالِ والسَّلاحِ، وأمرتُ ألا يَدْخُلَ عليك إلا فلانٌ

(١) هو الخليفة الثاني وقد تولى آخر سنة ١٥٨هـ .

(٢) جراءة وشدة .

(٣) غلطات وسقطات .

(٤) خشوع .

(٥) الظلم .

(٦) كلمة الترحم، والمراد : للتعجب .

(٧) حاجزاً .

وَقُلَانْ، وَلَمْ تَأْمُرْ بِصَلَةِ الْمَظْلُومِ وَالْمَلْهُوفِ وَالْجَائِعِ وَالْعَارَى، وَمَا أَحَدٌ إِلَّا لَهُ فِي الْأَمْوَالِ حَقٌّ .

فَلَمَّا رَأَى أَعْوَانُكَ تَحْبِسُ^(١) الْمَالَ وَلَا تَقْسِمُهُ ، قَالُوا: خَانَ اللَّهُ، فَمَا بَالُنَا لَا نَخُونُهُ، وَاتَّفَقُوا عَلَى كَتْمِ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ عَنْكَ إِلَّا مَا أَرَادُوا، لَا يُخَالِفُ أَمْرَهُمْ عَامِلٌ إِلَّا أَقْصَوْهُ^(٢). فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ خَافَهُمُ النَّاسُ، وَصَانَعَهُمْ عَمَّا لَكَ بِأَهْدَايَا وَالْأَمْوَالِ، لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى الظُّلْمِ ، وَفَعَلَ أَهْلُ الثَّرْوَةِ وَالْقُوَّةِ مِنْ رَعِيَّتِكَ مِثْلَهُمْ، لِيُظْلِمُوا مَنْ دُونَهُمْ وَامْتَلَأَتْ بِلَادُ اللَّهِ بَغْيًا وَفُسَادًا، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ شُرَكَاءَ فِي سُلْطَانِكَ وَأَنْتَ غَافِلٌ، وَإِنْ ذَهَبَ صَارِخٌ إِلَيْكَ حَالُوا^(٣) بَيْنَهُ وَبَيْنَ الدَّخُولِ عَلَيْكَ .

كَانَ بَنُو أُمَيَّةَ لَا تُرْفَعُ إِلَيْهِمْ مَظْلَمَةٌ إِلَّا عَلِمَ بِهَا الْخَلِيفَةُ، وَقَضَى لِصَاحِبِهَا، وَكَانَ الرَّجُلُ يَأْتِي مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ بَابَ سُلْطَانِهِمْ فَيُنْصِفَهُ .
وَقَدْ سَافَرْتُ مَرَّةً إِلَى الصِّينِ ، فَرَأَيْتُ مَلِكَهَا يَبْكِي لِنَازِلَةٍ^(٤) أَلَمَّتْ^(٥) بِهِ، فَذَهَبْتُ بِسَمْعِهِ، فَقَالَ لَهُ وَزِيرُهُ: مَا لَكَ تَبْكِي؟ لَا بَكَتْ عَيْنَاكَ^(٦) فَقَالَ: لَسْتُ أَبْكِي عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِي وَإِنَّمَا أَبْكِي لِأَنِّي لَا أَسْمَعُ صُرَاخَ الْمَظْلُومِ ، وَلَكِنْ إِنْ ذَهَبَ سَمْعِي فَإِنَّ بَصْرِي لَمْ يَذْهَبْ ، وَأَمْرُ أَعْوَانِهِ أَنْ يَنَادُوا فِي النَّاسِ: لَا يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْحُمْرَ إِلَّا الْمَظْلُومُ، وَصَارَ يَرْكَبُ الْفِيلَ نَهَارًا ، وَيَطُوفُ بِالطَّرِيقِ عُلَّةُ يَوْمٍ مَظْلُومًا فَيُنْصِفُهُ .

(١) تمنع .

(٢) أبعدوه .

(٣) فصلوا ومنعوا .

(٤) المراد : المصيبة .

(٥) نزلت .

(٦) هذه الجملة للدعاء بالآل يصاب بشيء يجعله يبكي .

هَذَا - يا أمير المؤمنين - مُشْرِكٌ بِاللَّهِ، وَأَنْتَ مُؤْمِنٌ بِهِ (عَزَّ وَجَلَّ) وَابْنُ
عَمِ نَبِيِّهِ^(١). فَكَيْفَ تَصِيرُ إِلَى مَا أَنْتَ فِيهِ؟

وَمَاذَا تَصْنَعُ أَمَامَ الْمَالِكِ الَّذِي مَنَحَكَ مُلْكَ الدُّنْيَا؟ وَهُوَ يَرَى مِنْكَ مَا
خَفَى عَلَيْكَ، وَمَاذَا تَقُولُ إِذَا انْتَرَعَ الدُّنْيَا مِنْ يَدِكَ، وَدَعَاكَ إِلَى الْحِسَابِ هَلْ
يُغْنِي عَنْكَ مَا كُنْتَ فِيهِ شَيْئًا؟

فَبَكَى الْمَنْصُورُ حَتَّى ارْتَفَعَ صَوْتُهُ، ثُمَّ قَالَ : لَيْتَنِي لَمْ أُخْلَقْ، وَلَمْ أَكْ شَيْئًا،
كَيْفَ احْتِيَالِي فِيمَا مَنَحَنِي اللَّهُ^(٢)، وَلَمْ أَرِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا خَائِنًا!
قَالَ الرَّجُلُ : عَلَيْكَ بِالْإِثْمَةِ النَّاصِحِينَ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : وَمَنْ هُمْ ؟

فَأَجَابَهُ : هُمُ الْعُلَمَاءُ الْأَتْقِيَاءُ .

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ : فَرُّوا مِنِّي .

فَقَالَ الرَّجُلُ : هَرَبُوا مَخَافَةَ أَنْ تُشْرِكَهُمْ فِي آثَامِكَ^(٣) فَافْتَحَ الْأَبْوَابَ
وَارْفَعَ الْحِجَابَ ؛ وَانْتَصَرَ لِلْمَظْلُومِ وَأَمْنَعَهُ^(٤)، وَخَذَ الْمَالَ مِمَّا حَلَّ وَطَابَ،
وَاقْسَمَهُ بِالْعَدْلِ ، وَأَنَا ضَامِنٌ لَكَ أَنْ يَأْتِيكَ مَن هَرَبَ؛ فَيَعَاوَنَكَ عَلَى إِصْلَاحِ
أَمْرِكَ وَرَعِيَّتِكَ .

قَالَ الْخَلِيفَةُ : اللَّهُمَّ وَفَّقْنِي أَنْ أَعْمَلَ بِمَا قَالَ هَذَا الرَّجُلُ . ثُمَّ مَالَ عَلَيْهِ
يُقْبَلُهُ، وَيَدْعُو لَهُ بِالْخَيْرِ وَحَسَنَ الْجَزَاءِ.

(١) العباسيون: من أولاد العباس بن عبد المطلب ، والعباس : عم النبي عليه الصلاة والسلام .

(٢) معنى هذه الجملة ماذا أصنع لأبلغ الكمال فيما أعطاني الله (وهو الخلافة) .

(٣) ذنبك .

(٤) أخيه وحافظ عليه .

مفتاح شخصية علي بن أبي طالب (*)

((آداب الفروسية)) هي مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذي يفض منها كل مُغلق ، ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير .
وآداب الفروسية هي تلك الآداب التي نلخصها في كلمة واحدة، وهي النخوة^(١).

وقد كانت النخوة طبعاً في ((علي)) فطر عليه ، وأدباً من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات ((الفروسية)) العملية التي يتعوّدها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يُطبع عليها ويتشأ في حجرها؛ لأنَّ للغلبة في الشجاع أنفة تأتي عليه أن يُسِف^(٢) إلى ما يُخجله ويُشينه، ولا تزال به حتى تعلّمه النخوة تعليماً، وتمنعه أن يعمل في السر ما يزرى به في العلانية .
وهكذا كان عليّ عليه السلام في جميع أحواله، وأعماله. بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما في معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينسَ الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره^(٣) الريب قط في الشرف، والحق، إنهما قائمان دائماً، كأنهما مودعان في طبائع الأشياء، فإذا صنع ما وجب عليه فليُنسَ مَنْ شاءوا ما وجبَ عليهم، وإن أفادوا كثيراً وباءَ هو بالخسارة .
أصاب المقتل من عدوّه مرّات، فلم يهتبل الفرصة الساخنة بين يديه؛ لأنّه أراد أن يغلب عدوّه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يودّ أن يغلبه أو يقتصّ منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص .

(*) من كتاب عبقرية الإمام للأستاذ العقاد .

(١) النخوة : المروءة .

(٢) يسف : يهبط .

(٣) يساوره : يداخله .

قال بعض من شهدوا معركة صفين: «لما قدمنا على معاوية، وأهل الشام بصفين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً اختاروه مستويًا بساطاً^(١) واسعاً، وأخذوا الشريعة - أي مورد الماء - فهي في أيديهم.. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبّرناه بذلك، فدعا صغصعة بن صوحان فقال له: انت معاوية، وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم، ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإلك قدّمت إلينا خيلك ورَجَلَك، فقاتلتنا قبل أن نقاتلك، وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها، إذ حُلْتُم بين الناس وبين الماء، فابعثْ إلى أصحابك فليُخلُوا بين الناس والماء، ويَكْفُوا حتى نُنْظَرَ فيما بيننا وبينكم، وفيما قدمنا له وقدمتم له».

ثم قال راوى الخبر ما فحواه: إن معاوية سأل أصحابه، فأشاروا عليه أن يَحُولَ بين عليٍّ والمورد، غير حافل بدعوته إلى السلم، ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدداً إلى حُرَّاس المورد يَحْمُونَهُ، وَيَصُدُّونَ من يقترب منه، ثم كان بين العسكرين تراشق بالتبَل، فطَفَنَ بالرماح، فضرب بالسيوف، حتى اقتحم أصحابُ عليٍّ طريق الماء وملكوه.

وهناك الفرصة الكبرى لو شاء علي أن يهتبلها^(٢) وأن يغلب أعداءه بالظلم، كما أرادوا أن يغلبوه به قُبَيْلَ ساعة، وقد جاء أصحابه يقولون: «والله لا نسقيكموه»! فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم، يَتَشَفَّعُ لهم وَيَسْتَلِينُ قُلُوبَهُمْ من أجلهم وصاح بهم: «خُذُوا من الماء حاجتكم، وارجعوا إلى عسكركم، وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت لهم فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فإني أن

(١) بلساطاً: لعال بمعنى مفعول مثل كتاب بمعنى مكتوب، وفراش بمعنى مفروش. أى مبسوط

(٢) يهتبل: ينتهز.

يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه؛ لأنه فُهام أن يسلبوا المال ويستبيحوا
السبى وهو في رأيهم حلال. قالوا: «أتراه يُحلّ لنا دماءهم، ويُحرم علينا
أموالهم؟ فقال: إنما القوم أمثالكم. من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن
خرج حتى يصاب فقتاله منى على الصّدر والنّحر» وسنّ لهم سنّة الفروسية أو
سنة النخوة؛ حين أوصاهم ألا يقتلوا مُدبراً، ولا يُجهزوا على جريح، ولا
يكشفوا سترًا، ولا يمدوا يداً إلى مال.

ومن الفرص التي أبّت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة «عمرو بن العاص»
وهو مُلقب على الأرض مكشوف السوء لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما
حضره من وقاء. فصَدَف^(١) بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلاً يخاف الموت
هذا المخافة التي لا يرضاها من منازلها في مجال صراع، ولو غير على أتيح له أن
يَقْضَى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداٍ ودهاء. فلم يُبَالِ أن
يُصِيبه حيث ظفر به، ولا جُنّاح^(٢) عليه.

لقد كان رضاه من الآداب في الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من
جميع آدابها ومأثوراتها.

فكان يعرف العدوَّ عدوًّا حيثما رفع السيف لقتاله، ولكنه لا يعادى
امرأة، ولا رجلاً مولياً. ولا جريحاً عاجزاً عن نضال، ولا ميتاً ذهبت حياته
ولو ذهبت في سبيل حُرِّه. بل لعلّه يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره،
ليكيه، ويرثيه ويصلّي عليه.

وهذه الفروسية هي التي بَغَضَتْ إليه أن ينال أعداءه بالسّباب، وليس في
أدب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

(١) صدَف بوجهه: الصرَف به ومال.

(٢) لا جناح عليه: لا إثم عليه.

فلما سمع قومًا من أصحابه يسُبُّون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: «إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتُم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبِّكم إياهم: اللَّهُم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله. وَيَرْغَبُوا عَنِ الْغَيِّ وَالْعُدْوَانِ مِنْ هُجٍّ^(١) بِهِ» .

وربما شد عن سنته هذه في بعض الأحيان ^{باعتدال}. فإذا به لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حيث تغلبهم بوادِر اللسان فنَدَرَ بين رجال السيف من يسمع الكلمة المُغْضِبة فلا ينطلق لسانه بكلمة عوراء، يجارى بها غَضَبَه الذي طُبِعَ على إبدائه ولم يُطَبِّعْ على كتمانهِ .

ومن قبيل هذا كلمات قالها «عليٌّ» في «ابن العاص» وفي «معاوية» وفي «الأشعث بن قيس» وغير هؤلاء . ولكنّه لم يجعلها دَيْدَنًا له كما سبَّوه على المنابر، وأشاعوا مَذْمَتَهُ بين أهل الأمصار .

شَعَبَ عليه «الأشعث بن قيس»، ومَرَدَ عليه الجُند، وأَفْشَى بين أنصارهِ الفتنة، وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة، فأغضبه، وهاج غيظه فبدره بقوله: «عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين. حائك ابن حائك، منافق ابن كافر ، والله لقد أسرك الكفر مرة، والإسلام أخرى، فما فداك من واحدة منها مالك ولا حَسْبُكَ، وإنَّ امرأً دل على قومهِ السيف ، وساق إليهم الحَتَفَ ، لحريٌّ أن يَمُتَّهُ الأَقْرَب ولا يَأْمَنَهُ الأَبْعَد» .

وظفّق «ابن العاص» ينعته بين أهل الشام بالهزل والدُّعابة، ويأمر بسبهِ

(١) هج به: أغرى به فتار عليه.

على المنابر، حتى وجب رَدُّهُ وإِدْحَاضُ زعمه، فقال ﷺ في بعض خطبه :
 ((عجباً لابن النابغة ! يزعم لأهل الشام أن فيَّ دُعاةٌ وأتَى امرؤُ تلعةَ
 أعافس^(١) وأمارس . لقد قال باطلاً ، ونطق آثماً أما - وشر القول الكذب -
 إنه ليقول فيكذب ، وَيَعِدُّ فيخلف ، وَيُسألُ فَيَبْخُلُ، ويخون العهد، ويقطع
 الإِلَّ^(٢)، فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وأمر ما لم تأخذ السيوف مآخذها،
 فإذا كان ذلك كان أكبرَ مكيدته أن يمنحَ القومَ سبته، أما والله ليمنعني من
 اللعب ذِكْرُ الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة. إنه لم يبايع
 معاوية حتى شرط أن يُؤْتِيهِ أُتِيَّةٌ^(٣) ويرضخ له على ترك الدين رضيخة)) .

وكذلك كان يَجِبُهُ معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه
 بما يُغضُّ من حقه، وَيَقْدَحُ في دعوته ، فلا يشذ عن ديدن الفرسان في رويَّة
 فِكْرِهِ، ولا في بوادِرِ لسانه، ولكن الفَلَتَاتِ التي من هذا القبيل شيءٌ، واتخاذ
 السباب صناعة دائمةً، وسلاحاً مشهوراً ، وسبيلاً إلى القول الباطل شيءٌ،
 آخر .

ولقد كانت للإمام ﷺ شواغل أخرى غير الفروسية تجرى في مجراها حيناً
 وتبدو غريبة عنها حيناً آخر في عرف بعض الناقدين، ومنها التفقه والنزوع إلى
 ((التصوف)) واستنباط حقائق الأشياء .

فهذه في عرف بعض الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ما

(١) المعافسة : مضاربة الناس مزاحاً ومغازلة النساء .

(٢) الإِل : القرابة والرحم .

(٣) الأتية : العطية ومثلها الرضيخة مع قلة .

قدروه. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة؟ أليس هو في معننه جهادًا في الحق أو جهادًا في الله؟ أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد؟ ألم تعهد في كل ملّة، وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم مُتَدَيِّنُونَ مُتَنَطِّسُونَ، أو يتدَيِّنُونَ وَيَتَنَطِّسُونَ^(١) لأنهم مجاهدون ؟

فالإمام عليّ عليه السلام لا يُخرجه من الفروسية فقه الدين، بل هو أخرى أن يَسْلُكها فيها، ولا يخرجها من الفروسية بعض المقال في خصومه، بل هي بؤادر الفرسان بعينها، ولا تزال آداب الفروسية بشتّى عوارضها هي المفتاح الذي يُدار في كل باب من أبواب هذه النفس، فإذا هو منكشف المناظر عما يليه.

(١) يَتَنَطِّسُونَ : يتأنفون ويدقون النظر في عبادتهم .

المناقشة

- ١- اشرح معنى النخوة ، وبين علاقتها بالشجاعة ، وكيف كانت مفتاحاً لشخصية عليّ بن أبي طالب ؟
- ٢- كان عليّ يابى أن يقضى على خصمه في حال ضعف وتخاذل، اذكر من القصص ما يؤيد ذلك .
- ٣- ما كان عليّ لينطق العوراء إلا فلتات لا تعدو أن تكون من بوادى الفرسان . اشرح ذلك.
- ٤- لا تناقض بين الفروسية والنزوع إلى التصوف، وضح ذلك .
- ٥- للفروسية صفات تميزها، اشرح هذه الصفات .
- ٦- حمل عليّ صعصعة بن صوحان رسالة، ما موضوعها ؟ ومناسبتها ؟ وعلام تدل من صفات عليّ ؟
- ٧- بم تصف أسلوب العقاد ؟
- ٨- للعقاد كتب أخرى تسمى «العبقريات» ماذا تعرف منها ؟

من خطبة له عليه الصلاة والسلام

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ أَذْبَرَتْ وَأَذْنَتْ بَوْدَاعٍ^(١) : وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَشْرَفَتْ
بِاطْلَاعِ. أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمَضْمَارَ^(٢)، وَغَدَا السَّبَّاقِ. وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ^(٣)، وَالْغَايَةُ
النَّارُ. أَفَلَا تَأْتِبُ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ؟ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ^(٤). أَلَا
وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ^(٥)، مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ. فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ، قَبْلَ حُضُورِ
أَجَلِهِ، نَفَعَهُ عَمَلُهُ، وَلَمْ يَضُرُّهُ أَجَلُهُ، وَمَنْ قَصَرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ، قَبْلَ حُضُورِ
أَجَلِهِ، فَقَدْ خَسِرَ عَمَلَهُ، وَضُرَّ أَجَلُهُ. أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ، كَمَا تَعْمَلُونَ فِي
الرَّهْبَةِ^(٦). أَلَا وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا! وَلَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا^(٧)! أَلَا وَإِنَّهُ
مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَقِمَّ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلَالُ
إِلَى الرَّدَى. أَلَا وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظُّعْنِ^(٨)، وَذُلُّتُمْ عَلَى الزَّادِ. وَإِنَّ أَخَوْفَ مَا
أَخَافُ عَلَيْكُمْ اتِّبَاعَ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، تَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا مَا تَحْرُزُونَ
أَنْفُسَكُمْ بِهِ غَدًا^(٩).

(١) آذنه الأمر : وبه إيذاناً : أعلمه به وذلك كناية عن تقلبها وتحولها لأن هذا إشعار منها
بالانصراف.

(٢) المضمار : الموضع تضمر فيه الخيل وأحسن منه : زمن الضمير. وحقيقة التضمير إحداث الضمور
وهو الهزال، وخفة اللحم وذلك لتخف في السباق ولتنهض بصاحبها.

(٣) السبقة بالتحريك : الغاية التي يجب أن يصل إليها السابق.

(٤) البؤس بالضم مصدر بئس الرجل من باب علم، بؤساً وبئساً : اشتدت حاجته فهو بئس.

(٥) أي في يوم تأملون فيه البقاء وطول الحياة.

(٦) الرهبة بالفتح : الخوف وهي مصدر رهب الرجل من باب علم رهباً بالفتح والضم وبالتحريك،
ورهباً بالضم وبالتحريك : خاف.

(٧) أي الهارب منها.

(٨) الظعن بالفتح وبالتحريك وكذلك الظعون والمظعن : كله مصدر ظعن من باب قطع : سار وارتحل
والمعنى أنكم قد ركب فيكم الرحيل عن هذه الدنيا إلى الدار الآخرة ودللتهم على عمل الصالحات
ليكون زاداً.

(٩) يقال : حرز نفسه كنصر والمصدر حرزاً : حفظها وصانها.

قال الشريف الرضى^(١): أَقُولُ: لَوْ كَانَ كَلَامٌ يَأْخُذُ بِالْأَعْيَانِ إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَيَضْطَرُّ إِلَى عَمَلِ الْآخِرَةِ، لَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ وَكَفَى بِهِ قَاطِعًا لِعَلَّاقَةِ الْأَمَالِ، وَقَادِحًا زِنَادِ الْإِتْعَاطِ، وَالْأَزْدَجَارِ، وَمَنْ أَعْجَبَهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمَضْمَارَ وَغَدَا السِّبَاقَ وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ» فَإِنَّ فِيهِ مَعَ فَخَامَةِ اللَّفْظِ، وَعَظَمِ قَدْرِ الْمَعْنَى، وَصَادِقِ التَّمَثِيلِ، وَوَاقِعِ التَّشْبِيهِ سِرًّا عَجَبِيًّا، وَمَعْنَى لَطِيفًا، وَهُوَ قَوْلُهُ ﷺ: «وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ» فَخَالَفَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ لِأَخْتِلَافِ الْمَعْنَيَيْنِ، وَلَمْ يَقُلِ السَّبْقَةُ النَّارُ كَمَا قَالَ السَّبْقَةُ الْجَنَّةُ، لِأَنَّ السِّبَاقَ إِنَّمَا يَكُونُ إِلَى أَمْرٍ مَحْبُوبٍ، وَغَرَضُ مَطْلُوبٍ، وَهَذِهِ صِفَةُ الْجَنَّةِ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَعْنَى مَوْجُودًا فِي النَّارِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا فَلَمْ يَجْزُ أَنْ يَقُولَ: وَالسَّبْقَةُ النَّارُ، بَلْ قَالَ: وَالْغَايَةُ النَّارُ، لِأَنَّ الْغَايَةَ يَنْتَهِي إِلَيْهَا مَنْ لَا يَسْرُهُ الْإِنْتِهَاءُ وَمَنْ يَسْرُهُ ذَلِكَ فَصَلَحَ أَنْ يُعْبَرَ بِهَا عَنِ الْأُمُورَيْنِ مَعًا، فَهِيَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ كَالْمَصِيرِ وَالْمَالِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ» وَلَا يَجُوزُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنْ يُقَالَ: سَبَقْتُمْ «بِسُكُونِ الْبَاءِ» إِلَى النَّارِ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ قِبَاطْنُهُ عَجِيبٌ، وَغَوْرُهُ بَعِيدٌ، وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ كَلَامِهِ ﷺ (وَفِي بَعْضِ) النُّسخِ وَقَدْ جَاءَ فِي رِوَايَةِ أُخْرَى: «وَالسَّبْقَةُ الْجَنَّةُ» بِضَمِّ السِّينِ وَالسَّبْقَةُ عَنْدهُمْ اسْمٌ لِمَا يُجْعَلُ لِلْسَّابِقِ إِذَا سَبَقَ مِنْ مَالٍ أَوْ عَرَضٍ، وَالْمَعْنَيَانِ مُتَقَارِبَانِ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ جَزَاءً عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ الْمَذْمُومِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ جَزَاءً عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ الْحَمْدِيِّ.

(١) هو أبو الحسن محمد بن أبي أحمد الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الصادق ولد سنة ٣٥٩ وكان أبوه عظيم القدر، رفيع المنزلة في دولة بني العباس وبني بويه ولي نقابة الأشراف ببغداد ومات وهو يليها وأم الرضى فاطمة بنت الحسين صاحب الديلم وملكهم ينتهى نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رحمهم الله جميعاً كان الرضى رحمه الله أديباً، عالماً، شاعراً، مفلقاً فصيح النظم ضخم اللفاظ وكان له في النشر الباع الطويل ومع هذا كان عفيف النفس على المهمة مستلزماً للدين وقوانينه لم يقبل من أحد صلة مدة حياته لا من الملوك ولا من غيرهم حتى من أبيه وكان له المكانة الزلفى عند الطائع والمقتدر من خلفاء بني العباس ولي نقابة الأشراف ببغداد وكانت نفسه تنازعه أن يلي الخلافة وله في ذلك الأشعار الطويلة توفى سنة ٤٠٦ رحمه الله وأتابه رضاه.

عبد الله بن عباس

هو عبد الله بنُ العباس ، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، القرشي الهاشمي، وكنيته أبو العباس، ولد في الشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة حينما اختار رسول الله عليه صلوات الله الرقيق الأعلى، روى عنه أنه كان ابن خمس عشرة.

وبحسب ابن عباس فخرًا أنه ابن عم الرسول عليه صلوات الله، أمه أم الفضل، لبابة بنت الحارث الهلالية.

وابن عباس من أوفر أصحاب رسول الله روايةً للأحاديث، ومن أحرصهم على جمع صحاحها.

وهذا عكرمة يروي عن ابن عباس لما قبض رسول الله عليه الصلاة والسلام، قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله، فبهم اليوم كثير.

قال: واعجبًا لك ، أترى الناس يفتقرون إليك وتفعل هذا؟ قال ابن عباس: فتركته، وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغني الحديث عن رجل فأتى بابي وهو قائل^(١) فأتوسد ردائي على بابي، يسفى الريح على من التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا بن عم رسول الله ، ما جاء بك؟ هلاً أرسلت إلى فأتيك؟ فأقول: لا ، أنا أحق أن آتيك، فأسأله الحديث. قال ابن عباس: فعاش الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولى يسألوني، فقال: هذا الفتى كان أعقل مني.

(١) قائل: مستريح وقت القيلولة.

لقد روى رواية الحديث عن رسول الله عليه صلوات الله وسلامه من وجوه، أنه قال لعبد الله بن عباس: «اللهم علّمه الحكمة، وتأويل القرآن»، وفي رواية: «اللهم فقهه في الدين، وعلّمه التأويل»، وفي حديث آخر: «اللهم بارك فيه، وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين»، وفي آخر: «اللهم زده علماً وفقهاً»... وهي كلها أحاديث صحاح.

ومن أجل هذه المكانة السامية، والخلال العالية، كان عمر بن الخطاب يحبه ويدنيه، ويقربه، ويشاوره مع أجلة الصحابة على صغر سنه ويقول عمر فيه: «ابن عباس فتي الكهول، له لسان سنول، وقلب عقول».

روى مسروق عن ابن مسعود قوله: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس، لو أدرك أسناننا ما عاشره مثلاً رجلاً»، وقال مجاهد: «ما سمعت فتياً أحسن من فتياً ابن عباس، إلا أن يقول قائل: قال رسول الله ﷺ».

وقال طاوس: «أدركت خمسمائة من أصحاب النبي إذا ذاكروا ابن عباس فخالقوه، لم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله»، وقال يزيد بن الأصم: «خرج معاوية حاجاً، ومعه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممن يطلب العلم». روى الرواة عن مسروق قوله: «كنت إذا رأيت عبد الله بن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا تكلم قلت: أفصح الناس، وإذا تحدّث قلت: أعلم الناس».

وقال القاسم بن محمد: «ما رأيت في مجلس ابن عباس باطلاً قطّ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنة من فتواه، وكان أصحابه يسمونه البحر، ويسمونه الحين».

وكان ابن عباس عليهما الرضوان قد عمى في آخر عمره: روى عنه أنه رأى

رجلاً مع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، فلم يعرفه ، فسأل النبي عنه فقال له النبي : «أرأيتَه؟» قال : نعم ، قال : «ذاك جبريل ، أما إنك ستفقد بصرك!» فعمى بعد ذلك في آخر عمره ، وهو القائل في ذلك فيما روي عنه من وجوه :
 إن يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وقلبي منهما نورٌ
 قلبي ذكيٌ ، وعقلي غير ذي دَخل وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورٌ
 وشهد عبد الله بن عباس مع عليٍّ عليهما الرضوان الجميل ، وصفيّين ، والتَّهروان .
 وإذا شاكك أيُّها القارئُ أن تقف على لون من إجلال ابن عباس للعلم ،
 وأهله فاستمع لقول الشعبي :

«ركب زيد بن ثابت ، فأخذ ابن عباس بركابه فقال : لا تفعل يا بن عم رسول الله ! فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا» .

ويكشف عبدُ الله بنُ دينار عن بعض جوانب العلم في ابن عباس فيقول :
 جاء رجل إلى ابن عمر وسأله عن قوله سبحانه : «أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا»^(١) فقال ابن عمر للسائل :
 اذهب إلى ذلك الشيخ (يعني ابن عباس) فاسأله ، ثم تعال فأخبرني ، وذهب الرجل إلى ابن عباس فسأله ، فقال : كانت السموات رتقاء لا تمطر والأرض رتقاء لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات . فرجع الرجل فأخبر ابن عمر فقال : لقد أوتي ابن عباس علماً صدقاً ، لقد كنت أقول : ما تعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالآن علمت أنه قد أوتي علماً .

(١) سورة الأنبياء : الآية ٣٠ .

قال بعض الرواة - ولعله عبد الله بن بريدة-: شتم رجل ابن عباس، فقال له: «إِنَّكَ لَتَشْتُمُنِي فِي ثَلَاثٍ: إِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْحَاكِمِ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ، فَأُحِبُّهُ، وَلَعَلِّي لَا أَقَاضِي إِلَيْهِ أَبَدًا، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالغِيثِ يَصِيبُ الْبَلَدَ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَفْرَحُ بِهِ، وَمَا لِي بِهِ سَائِمَةٌ، وَلَا رَاعِيَةٌ، وَإِنِّي لَأَتَى عَلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، فَوَدِدْتُ لَوْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْهَا مِثْلَ مَا أَعْلَمُ» .

ولقد كان عمر يعده للمعضلات ، فإذا جاءت عمر الأقضية المعضلة قال لابن عباس: «إِنَّهَا قَدْ طَرَأَتْ عَلَيْنَا أَقْضِيَةٌ مُعْضَلَةٌ أَنْتَ لَهَا وَلِأَمْثَالِهَا» ثم يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحدًا سواه، وها هو ذا ابن عباس أيها القارئ يُحَدِّثُ بهذا الحديث النبوي الكريم: كنت خلف رسول الله ﷺ فقال: «يَا غُلَامُ ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ : أَحْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، أَحْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تَجَاهُكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رَفَعْتَ الْأَقْلَامَ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» .

قال المدائني عن حفص بن ميمون ، عن أبيه: توفي عبد الله بن عباس بالطائف، فجاء طائر أبيض، فدخل بين النعش والسرير، فلما وضع في قبره سمعنا تالياً يتلو: «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّاتِي»^(١).

ألا فلتعلمي يا روح ابن عباس في جنَّةِ الله، ورضوان الله، بما أخلصت وجاهدت في سبيل الله، وإحياء سنة رسول الله، عليه وعلى إخوانه من النبيين صلوات الله وسلامه .

(١) سورة الفجر: الآيات ٢٧ - ٣٠ .

أدب الزوجة

أعرابية توصي ابنتها ليلة زفافها

أَيُّ بُنَيَّةُ : إِنَّ الْوَصِيَّةَ لَوْ تَرَكْتُ لِفَضْلِ أَدَبٍ تَرَكْتُهَا لَدَلِكْ مِنْكَ ، وَلَكِنَّهَا تَذَكُّرَةُ الْغَافِلِ ، وَمَعُونَةُ الْعَاقِلِ . أَيُّ بُنَيَّةُ : إِنَّكَ فَارَقْتَ بَيْتَكَ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتَ ، وَغُشَّكَ الَّذِي فِيهِ دَرَجْتَ ، إِلَى وَكْرٍ لَمْ تَعْرِفِهِ ، وَقَرِينَ لَمْ تَأْلَفِهِ ، فَكُونِي لَهُ أُمَّةً يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاحْفَظِي لَهُ خَصَالًا عَشْرًا .

أَمَّا الْأُولَى وَالثَانِيَّةُ : فَاصْحَبِيهِ بِالْقَنَاعَةِ ، وَعَاشِرِيهِ بِحُسْنِ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ . وَأَمَّا الثَّالِثَةُ وَالرَّابِعَةُ : فَالْتَفَقْدُ لِمَوْضِعِ عَيْنِهِ وَأَنْفِهِ ، فَلَا تَقَعِ عَيْنُهُ مِنْكَ عَلَى قَبِيحٍ ، وَلَا يَشُمَّ مِنْكَ إِلَّا أَطْيَبَ رِيحٍ . وَأَمَّا الْخَامِسَةُ وَالسَّادِسَةُ : فَالْتَفَقْدُ لَوْقْتِ مَنَامِهِ وَطَعَامِهِ ، فَإِنَّ الْجُوعَ مَلْهَبَةٌ ، وَتَنْغِيصَ النَّوْمِ مَغْضَبَةٌ .

وَأَمَّا السَّابِعَةُ وَالثَامِنَةُ : فَالْإِحْتِرَاسُ بِمَالِهِ ، وَالْإِرْعَاءُ عَلَى حَشَمِهِ وَعِيَالِهِ ، وَمَلَائِكَةُ الْأَمْرِ فِي الْمَالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ ، وَفِي الْعِيَالِ حُسْنُ التَّنْذِيرِ . وَأَمَّا التَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ : فَلَا تَعْصَنَّ لَهُ أَمْرًا وَلَا تُفْشِنَّ لَهُ سِرًّا ، فَإِنَّكَ إِنْ خَالَفْتَهُ أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ ، وَإِنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ لَمْ تَأْمَنِ غَدْرَهُ .

ثُمَّ إِيَّاكَ وَالْفَرَحَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِنْ كَانَ مَهْتَمًّا ، وَالكَآبَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا كَانَ فَرَحًا ، فَإِنَّ الْخَصْلَةَ الْأُولَى مِنَ التَّقْصِيرِ ، وَالثَانِيَّةُ مِنَ التَّكْدِيرِ ، وَكُونِي أَشَدَّ النَّاسِ لَهُ إِعْظَامًا يَكُنْ أَشَدَّهُمْ لَكَ إِكْرَامًا ، وَاعْلَمِي أَنَّكَ لَا تَصْلِينَ إِلَى مَا تَحْبِينَ حَتَّى تَوْثِرِي رِضَاهَ عَلَى رِضَاكَ وَهَوَاهُ عَلَى هَوَاكَ فِيمَا أَحَبَّتْ وَكَرِهَتْ وَاللَّهُ يَخِيرُ لَكَ .

الخيزران ومزنة بنت مروان بن محمد

مثل من أمثلة المروءة

رَوَى عَنْ أَبِي مُوسَى مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ يَعْقُوبَ كَاتِبَ عَيْسَى بْنِ جَعْفَرٍ، قَالَ: «حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: كُنْتُ أَتَرَدَّدُ إِلَى زَيْنَبَ بِنْتِ سَلِيمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَخَذْتُهَا فَتَوَجَّهْتُ إِلَى خِدْمَتِهَا يَوْمًا فَقَالَتْ: «اقْعُدْ حَتَّى أُحَدِّثَكَ حَدِيثًا كَانَ بِالْأَمْسِ يُكْتَبُ عَلَى الْأَمَاقِ: كُنْتُ بِالْأَمْسِ عِنْدَ الْخِيزَرَانِ (زَوْجِ الْمُهَدِيِّ) وَمِنْ عَادَتِي أَنْ أَجْلِسَ بِإِزَائِهَا؛ وَفِي الصَّدْرِ مَجْلِسٌ لِلْمُهَدِيِّ يَجْلِسُ فِيهِ. وَهُوَ يَقْصِدُنَا فِي كُلِّ وَقْتٍ فَيَجْلِسُ قَلِيلًا ثُمَّ يَنْهَضُ. فَبَيْنَمَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَتْ عَلَيْنَا جَارِيَةٌ مِنْ جَوَارِيهَا فَقَالَتْ: «أَعَزَّ اللَّهُ السَّيِّدَةَ! بِالْبَابِ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَخُلُقَةٍ حَسَنَةٍ، وَلَيْسَ وَرَاءَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ غَايَةً تَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ، وَقَدْ سَأَلْتُهَا عَنْ اسْمِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنْ أَنْ تَخْبِرَنِي» فَالْتَفَتْتُ إِلَى الْخِيزَرَانِ وَقَالَتْ: «مَا ثَرَيْنَ؟» فَقُلْتُ: «أَدْخَلِيهَا، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ فَائِدَةٍ أَوْ ثَوَابٍ».

«فَدَخَلَتْ امْرَأَةً مِنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ، لَا تَتَوَارَى بِشَيْءٍ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ عَصَادَةِ الْبَابِ، ثُمَّ سَأَلَتْ مُتَضَائِلَةً ثُمَّ قَالَتْ: «أَنَا مَزْنَةُ بِنْتُ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأُمَوِيِّ». فَقَالَتْ الْخِيزَرَانُ: «لَا حَيَّاكَ اللَّهُ وَلَا قَرَّبَكَ! فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَزَالَ نِعْمَتَكَ، وَهَتَكَ سِتْرَكَ، وَأَذَلَّكَ. أَتَذْكُرِينَ - يَا عِدْوَةَ اللَّهِ - حِينَ أَتَاكَ عَجَائِزُ أَهْلِ بَيْتِي يَسْأَلُوكَ أَنْ تَكَلِّمَنِي صَاحِبَكَ فِي الْإِذْنِ فِي دَفْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ، فَوُثِّبَتْ عَلَيْهِنَ وَأَسْمِعْتَهُنَّ مَا لَا سَمْعَانَ قَبْلَ، وَأَمَرْتُ فَأَخْرَجْنِي عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ».

فَضَحَكَتْ مَزْنَةُ، فَمَا أَنْسَى حُسْنَ ثَغْرِهَا، وَغُلُوَّ صَوْقِهَا بِالْقَهْقَهَةِ. ثُمَّ قَالَتْ: «يَا بِنْتَ الْعَمِ! أَيُّ شَيْءٍ أَعْجَبَكَ مِنْ حُسْنِ صَنِيعِ اللَّهِ بِي عَلَى الْعُقُوقِ حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ تَتَأَسَّى بِي فِيهِ؟ وَاللَّهِ إِنِّي فَعَلْتُ بِنِسَائِكَ مَا فَعَلْتُ، فَأَسْلَمَنِي اللَّهُ لَكَ ذَلِيلَةً جَائِعَةً غُرْيَانَةً، أَوْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي فَعَلْتُ بِي مَقْدَارَ شُكْرِكَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى

ما أولاك بي ؟ » ثم قالت : « السلام عليكم » ، وولّت مسرعة ، فصاحت بها الخيزران فرجعت .

قالت زينب : « فنهضت إليها الخيزران لتعانقها ؛ فقالت : ليس في ذلك موضع مع الحال التي أنا عليها » . فقالت : « الحمّامُ إذا . وأمرت جملة من جواربها بالدخول معها إلى الحمّام ، فدخلت ، وطلبت ماشطة تصب الماء على وجهها ، فلما خرجت من الحمّام وافتها الخلع والطيب ، فأخذت من الثياب ما أرادت ، ثم تطيب ، ثم خرجت إلينا ، فعانقتها الخيزران وأجلستها في الموضع الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي » .

ثم قالت لها الخيزران : « مَنْ وراءك ممن تعتين به ؟ » قالت : « ما خارج هذه الدار من بيني وبينه نسب » . فقالت : « إذا كان الأمر هكذا فقومى حتى تختارى لنفسك مقصورة من مقاصيرنا ، وتحولي لها جميع ما تحتاجين إليه ، ثم لا نفترق إلى الموت » .

« فقامت ودارت بها في المقاصير ، فاختارت أوسعها وأنزهها ، ولم تَبْرَحْ حتى حولت إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكسوة » .

قالت زينب : « ثم تركناها وخرجنا عنها ، فقالت الخيزران : إنّ هذه المرأة قد كانت فيما كانت فيه ، وقد مسها الضر ، وقد يغسل المال ما في قلبها ، فاحملوا إليها خمسمائة ألف درهم . فحملت إليها » .

« وفي أثناء ذلك وافى المهدي ، فسأل عن الخبر ، فحدّثته الخيزران حديثها وما لقيتها به ، فوثب مغضباً ، وقال للخيزران : « أهذا مقدار شكر الله على أنعمه ، وقد أمكنك من هذه المرأة ، مع الحالة التي هي عليها ؟ ! فوالله لولا مَحَلُّكَ بقلبي لحلفت ألا أكلمك أبداً » .

فقالت الخيزران : « يا أمير المؤمنين ، قد اعتذرت إليها ، ورضيت ، وفعلت معها كذا وكذا » فلما علم المهدي ذلك قال لخدام كان معه : « احمل إليها مائة

بذرة، وادخل إليها، وأبلغها مني السلام، وقل لها : والله ما سررت في عمري
كسروري اليوم، وقد وجب على أمير المؤمنين إكرامك، ولولا احتشامك
لحضر إليك مُسلِّماً عليك، وقاضياً لحقك» .

فحضر الخادم بالمال والرَّسالة فأقبلت مزنة على الفور فسَلِّمت على
المهدي بالخلافة وشكرت صنَّعه، وبالغت في الثناء على الخيزران عنده،
وقالت : «ما على أمير المؤمنين حشمة، أنا من عدد حرِّمه» . ثم قامت إلى منزلها
معززة مكرمة ، تتصرف في المنازل والجواري كتصرف الخيزران» .

هل تلد الحية إلا الحية ؟

بينما كان شيطان بنى ثقيف ، الحجاج بن يوسف الثقفي، جالساً في دار إمارته، والناس من حوله على مراتبهم ، القليل منهم قاعدون، والكثير منهم وقوف، ينتظرون منه إشارة، فما أسرع ما كانوا يلبّون، بينما هو كذلك، قدم عليه ابن عم له أعرابي من البادية، لا عهد له بالحضر، فنظر إلى الحجاج يولى هذا، ويعزل ذاك، فقال له : أيّها الأمير، لم لا توليني بعض هذا الحضر؟ فقال له الحجاج: يا بن عم، هؤلاء الذين ترانى أوليهم يكتبون ويحسبون، وأنت لا تحسب ولا تكتب! فغضب الأعرابي غضباً شديداً وقال: بلى أيّها الأمير ، إني والله لأحسب من كل هؤلاء حساباً، وأكتب منهم يداً. فقال الحجاج: إن كنت كما تزعم فاقسم ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس، وسكت الأعرابي واجماً ، ثم أخذ يقول: ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس! ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس! ثلاثة دراهم بين أربعة أنفس! وما زال يكرر القول ساعة! ثم قال: لو أعطيت كل واحد منهم درهماً يبقى الرابع بلا شيء، ثم توجه إلى الحجاج وقال: أخبرني أيّها الأمير كم هم ؟ قال الحجاج: هم أربعة ، والدراهم ثلاثة. قال : نعم أيها الأمير ، قد وقفت على الحساب، لكل واحد منهم درهم، وأنا أعطى الرابع منهم درهماً من عندي! وضرب بيده إلى تخته، فاستخرج منها درهماً وقال: أتيكم الرابع؟ فلا والله ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحضريين! فضحك الحجاج حتى استلقى، وضحك جميع من معه وذهب بهم الضحك كل مذهب، والأعرابي ينظر إليهم ، لا يدري مم يضحكون!

وسكت الحجاج ساعة يفكر ، ثم قال : إن أهل أصبهان، كسروا خراجهم ثلاث سنين، وكلما أتاهم وال ماطلوه حتى أعجزوه ، فلأرminهم بدوية هذا وعنجھتته، وأخلق به أن ينبج، فكتب إليه عهده على أصبهان :

بمكسرناي

فلما خرج إليها، استقبله أهلها، واستبشروا به، وأقبلوا عليه يقبلون يده ورجله، وقد استجهلوه واستغمروه واستهانوا به، وقالوا: أعرابي بدوى، ما أهون شأنه، وأضعف رأيُه إنه لا يدرى من شئون الإمارة شيئاً! وهو لا يعدو أن يكون على مثل ما يكون عليه رعاة الأغنام، ثم إنهم أكثروا تملُّقه ليخدعوه عن أمرهم، ويصرفوه عما جاء من أجله، فلما رأى ذلك منهم قال: أعينوا على أنفسكم وتقيلكم أطرافى، وأخروا عني هذه الهيئات، أما يشغلکم عن ذلك ما أخرجني له الأمير؟! فلما استقر في دار الإمارة بأصبهان، أمر فنادى حتى اجتمع أهلها، فقال لهم: ما لكم تعصون ربكم، وتغضبون أميركم، وتنقصون خراجكم؟! فقال قائل منهم: جور من كان قبلك، وظلم من ظلم منهم، قال: أخبروني عن الأمر الذي فيه صلاحكم، فقالوا: أمهلنا بالخراج مدة. قال: إلى أي مدة تريدون؟ قالوا: أخرنا ثمانية أشهر، ونجمعه لك عن آخره قال: لست أؤجلكم إلى ثمانية أشهر بل إلى عشرة، على أن تأتوني بعشرة، ضماناً يضمنون، على أن يكون الضمان من خياركم، فأتوه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم، ولما قرب الوقت، رآهم غير مكترئين لما يدنو من الأجل، فأخذ يذكرهم به، باللين حيناً، وبالشدّة أحياناً، وأكثر لهم في ذلك، فلم ينتفع بقوله، ولم يزددهم ذلك إلا تراخياً! فلما طال به القول، وحلّ الوقت، جمع الضمان وقال لهم: المال؟ فقالوا: أصابنا من الآفات ما أهلك زرعنا، وأتلف مواشينا، فأمهلنا وقتاً آخر. فلما رأى منهم ذلك، آلى ألا يفطر - وكان في شهر رمضان - حتى يُجمع له المال كاملاً، لا تنقص منه درهم ولا دينار، وإلاّ فليس عنده إلاّ ضرب الرقاب، ثم أمر بأحدهم فقدم وضربت عنقه، وأخذ رأسه وجعله في بدرة وكتب عليها فلان ابن فلان أدّى ما عليه، وختم عليها بخاتمه، ثم أمر بآخر فقدم فضربت عنقه، وفعل برأسه مثل ما فعل برأس الأول! فلما رأى القوم ذلك منه ورأوا الرعوس تبذر وتجعل في الأكياس

بدلاً من المال! قالوا: أيها الأمير، توقف علينا قليلاً حتى نحضر لك المال، فقال:
 لقد طالما قلت لكم وأمهلتمكم، فلم ينفع قولي، ولم يجد إمهالي، وإني مجيئكم إلى
 ما سألتهم، ولكن إلى يوم أو يومين. وفيما بين يوم وليلة جمعوا المال وأحضره،
 وبلغ ذلك الحجاج فقال: إنا معشر آل محمد - يقصد جدّه - لا نعقب إلاّ
 النجباء، فكيف رأيتم فراستى في هذا الأعراي؟ ولم يزل واليّا عليها حتى مات
 الحجاج.

غدر اليهود

كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار، وأنَّ الناس جميعاً دونهم! وجعلوا علاقتهم مع الناس أجمعين على أساس العداوة والبغضاء، وتغلغل ذلك الكره في نفوسهم، حتى صار طبعاً من طباعهم يورثونه أبناءهم، ويلقنونه خلفهم، ويتلقاه جيل عن جيل! وكانت هذه سياسة اليهود طوائف وجماعات، وأفراداً وأسراً، فاليهودي يخاصم الناس وحده كما يخاصمهم مع سواه من بني ملته، ولا يثنيه عن فتكه بالناس أن يكون وحيداً، ولا يصرفه عن تدبير السوء أن يعيش فريداً! فهو حرب في كل حال! وتفكيره في الكيد لا يفارقه ولا يحتاج معه إلى معين أو ظهير! فترى كل فرد منهم يعتدي على الناس وحده، ويحمل عبء التنكيل والتقتيل وحده، كما يحمل ذلك إذا كان مع جمع من اليهود.

وقد حدث صاحب الأغاني في ترجمة حسان بن ثابت: أن صفية بنت عبد المطلب كانت في فارع^(١) يوم الخندق، قالت: وكان حسان معنا فيه، والنساء والصبيان، فمرَّ بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، ليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله والمسلمون في نخور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم، إذا أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان إنَّ هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل على عوراتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! قالت: فلما قال ذلك ولم

(١) فارع: حصن حسان.

أر عنده شيئاً، احتجزت^(١) ثم أخذت عموداً ، ثم نزلت إليه من الحصن، فضربته بالعمود حتى قتلته! فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن فقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل! قال: ما لي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب .

هذا اليهودي كان يطيف بالحصن، ولعله لم يكن يعتمد على أحد وراءه من اليهود، ولكن الشرّ الدفين في نفسه، وبغضه للمسلمين، وحرصه على أن يكون اليهود هم السّادة في الأرض، كلّ ذلك دفعه إلى أن يغامر بنفسه، ويقتحم المهالك ولا يبالي: أيعود سالماً أم ينتهي أمره إلى نهاية لا يعلمها؟ وهذه سجيّة اليهود التي تأصّلت في نفوسهم، وعرفوا بها بين خلق الله جميعاً، لا يستقرون إلا على حقد، ولا يسكنون إلا على غيظ يأكل نفوسهم ، ويفري صدورهم! وقد كان حُيى بن أخطب في غنى عن الحث في العهد الذي عاهد قومه من بني النضير، حين أجلاهم رسول الله عن المدينة، ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمه أحداً ولكن يهوديته غلبته، ودفعته إلى الغدر، وانحرفت به عن جادة الخير، فأخذ يؤكّب قريشاً وغطفان ، ويحزب العرب كلها لقتال المسلمين، وهو بذلك قد جسم العداوة بينهم وبين اليهود، وجعل المسلمين يعتقدون أن بني إسرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال الرسول وأصحابه، وهو الذي حمل دم بني قريظة في عنقه، إذ حملهم على نقض عهدهم، والخروج من حيادهم، ولو أنهم بقوا على عهدهم ما أصابهم من الشر شيء.

وهو الذي دخل حصن بني قريظة بعد ارتحال الأحزاب، ودعاهم لمواجهة المسلمين والدفاع عن أنفسهم بمقاتلتهم، ولو أنهم نزلوا على حكم الرسول من اليوم الأول، واعترفوا بخطئهم في نقض عهدهم، لما أهدرت دماؤهم، وضربت

(١) احتجزت بردائه: إذا شده على وسطه .

أعناقهم ، ولكن العداوة بلغت في نفس اليهود، ومنهم بنو قريظة، حدًا جعل سعد بن معاذ نفسه، وهو حليفهم ، يؤمن بأنه إن أبقى على حياتهم لم قهدأ لهم نفس حتى يؤلبوا الأحزاب من جديد، ويجمعوا العرب لقتال المسلمين، ويقتلهم عن آخرهم إن ظفروا بهم!.. ومن عناد اليهود وغرورهم أن السبايا أنفسهم لم يكن ما أصابهم من ذل السبي ، وصغار الأسر، وامتهان الخذلان، مانعًا لهم من الكبرياء والغرور، حتى إن نساء السبي كنَّ يحقدن على المسلمين، وهنَّ في هذه الحال المهينة، ويمتنعن عن الإسلام لعظمة في أنفسهنَّ ورثتها من أهليهم اليهود. وقد كانت ربحانة إحدى سبايا بني قريظة قد وقعت في سهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فعرض عليها الرسول منجاة من ذل الدنيا وخزي الآخرة، وخلاصها من العذاب الأليم إلى النعيم المقيم، ولكن شراسة اليهود منعتها من هذا كله، فقد عرض عليها الرسول أن يتزوجها، فقالت: بل تتركني في ملكك فهو أخف عليَّ وعليك! ويقول بعض المؤرخين هنا: إنها أبت الزواج والاقتران بأشرف مقام، لحرصها على اليهودية، وعصبيتها لقومها، وسوء نظرها في العواقب! فقد حال ذلك الجحود الذي انحدر إليها من قومها بينها وبين تقدير الأمور تقديرًا حسنًا، وآثرت أن تبقى مملوكة على أن تكون سيدة مطاعة، لأن اليهودية الفاسدة أحب إليها من هذه المكانة العظيمة، ولأن نفسها تأبى عليها إلا كراهية الإسلام والمسلمين!.

وقد انتهت بذلك معاهدة المسلمين ويهود المدينة، وكانت نهايتها بهذه الكوارث التي حلت باليهود، لأنهم لم يخلصوا للمعاهدة حين عقدوها، وقد طاولهم رسول الله ﷺ ما طاولهم، وأخذهم بنقض العهد قبيلة بعد قبيلة، ليعطي

من. بقى منهم مهلة لمراجعة أنفسهم، ولكنهم قوم لا تلين نفوسهم هذه السياسة الكريمة، ولا تصلح قلوبهم المعاملة الحسنة، ولا يمكن أن يقتلع ذلك من نفوسهم ما طبعت عليه من إثارة مصالحهم الخاصة على غيرها، والنظر بعين العداوة إلى كل من يخالفهم في دينهم، أو ينتمي إلى غير جنسهم، فقد بلغت منهم الأثرة مبلغها، ووصل بهم حب النفس إلى ما وصل إليه، وبذلك استحقوا ذلك الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ، جزاءً لهم على نقضهم المواثيق، وانتقاماً من هذه النفوس التي ما كانت تضر شيئاً إلا الشر، ولا تحسن أن تعامل الناس إلا بالغلدر والخديعة! وهو حين أصدر هذا الحكم، كان متأثراً في قسوته وشدته بالدفاع عن النفس، واعتباره بقاء اليهود أو زوالهم مسألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين، ولم يكن معتدياً ولا آثماً، ولا بادئاً بشر، ولا مبتدعاً نوعاً من أنواع النكر، وإنما هو الدفاع اقتضى هذه القسوة، وصد المعتدين أدى إلى تلك الشدة، ولو كان هناك سبيل غيرها لسلكه، أو طريق إلى البرِّ بهم لمضى فيه، وللضرورات حال لا تشفعه، فإذا حملت هذه الضرورات المسلمين إلى الحمل الخشن فلا لوم عليهم ولا تثريب: بسم الله الرحمن الرحيم إذا لم تكن إلا الأسننة مركباً فما حيلة المضطر إلا ركوبها وقد روى أحمد عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قصة سعد بن معاذ، قال: رُمي يوم الأحزاب سعد بن معاذ، ففقطع الجلد، فحسمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالنار فانتفخت يده، فلما رأى ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تفر عيني من بني قريظة فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة حتى نزلوا على حكم سعد، فأرسل إليه، فحكم أن يقتل رجالهم، وتسي نساؤهم

وذراريهم، ليستعين بهم المسلمون، ولما فرغ من حكمه انفتق عرقه، وسال الدم، واحتضنه صلى الله تعالى عليه وسلم، فجعلت الدماء تسيل عليه، ومات سعد منه، وحمل إلى منزله، ولم يعلم رسول الله ﷺ بموته، فأتاه جبريل فقال: «يا محمد، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له عرش الرحمن فرحاً؟» فقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سريعاً إلى سعد بن معاذ، فوجده قد مات! ولما دفن ﷺ وشيعه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، ومن معه من الصحابة والملائكة، سبح صلى الله تعالى عليه وسلم وسبح الناس معه، فقالوا: يا رسول الله ولم سبّحت؟ قال: «لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره، حتى فرجه الله عنه». وسئل صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك، فقال: «كان يقصر في الطهور من البول» ومعنى ذلك أنها كانت هفوة أذهبها حسنات سعد، وأمر الله رسوله أن يستغفر له، ومحتها صالحاته، فجمع الله ملائكته مع الرسول في الاستغفار: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ»^(١) ولقد أشاد بذكره رسول الله، ورفع في مماته بعد أن رفعه في حياته. ويروى الإمام الشافعي في «الأم» أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اشترك في حمل جثمانه، وهذا تشريف لا يصل إليه تشريف، وتكريم لا يبلغه تكريم.

كان سعد ممتلئاً حنقاً على بني قريظة لغدرهم، ومتميزاً غيظاً من شرهم ونكرهم، فأصدر عليهم هذا الحكم العادل الفاصل، الذي لا ظلم فيه ولا إجحاف، وحين انقضى شأن بني قريظة قال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم

قريش بعد عامكم، ولكنكم تغزوهم» فكان كذلك، ووطد القضاء عليهم
 للمسلمين في المدينة فلم يبق لأعداء الإسلام فيها صوت قط. ^{سورة هود}
 وخلصت الأرض للمخلصين من عباد الله، لا يحملون في صدورهم حقداً
 لأحد، ولا عداوة لإنسان، ويسوسون الناس بالعدل، والإحسان والرحمة
 والحنان، لا بالقوة والسياسة، ولا بالعذاب والتنكيل، ليس لهم حظ في مال ولا
 شهوات، ولا رغبة في جاه ولا سلطان، وإنما يقصدون النهوض بتكاليف
 الحياة وواجباتها، والقيام بأعباء الدين وأوامره: «الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ
 أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ
 الْأُمُورِ» (١).

وإن الإنسان ليستظهر سياسة هؤلاء الناس فيمتلئ روعة، وتفيض جوانحه
 إعجاباً، بأولئك الذين باعوا الدنيا واشتروا الآخرة، ورغبوا عن أعراض
 العاجلة الفانية، وتفانونا في إرضاء مالك الملك والملوك، وجعلوا نصب
 أعينهم قول الله: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ
 جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً» (٢).

هذه تربية الإسلام لأهله: لم يكن مسلم يحب أثره في مال، ولا في رأى،
 ولا استئثاراً في ملك ولا سياسة، وإنما يحضر من الشواهد الباهرة قول عمر
 رضي الله تعالى عنه، لما شرع يفرض الخراج على سواد العراق، إذ يقول

(١) سورة الحج : ٤١ .

(٢) سورة الإسراء : ١٨ : ١٩ .

للأنصار حين جمعهم لاستشارتهم: «إني لم أذعكم إلا لأن تشركوا في أمانتي فيما حملت من أموركم، فإني واحد كأحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا الذي هواي... وقد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم، وإني أعوذ بالله أن أركب ظلماً، لئن كنت ظلمتهم شيئاً هو لهم، وأعطيته غيرهم لقد شقيت» ! وذلك في قصة طريفة يرويها أبو يوسف في كتاب الخراج: وقد تجاوز خلق المسلمين العدل إلى الشفقة والرحمة، ويروى أن رسول الله ﷺ هُمى أن يفرق بين الأم وولدها في سبايا بني قريظة، وقال: «إِنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». ألا ما أحنى هذه القلوب على الإنسانية، وأرحمها بالبشرية، ولكن الناس أكثرهم لا يعقلون !!

الجهاد الإسلامي وأنواعه

الجهاد مصدر جاهد المزيد بحرف ، وهو مأخوذ من الجُهد - بفتح الجيم - أي التعب والمشقة، لما فيه من ارتكابها، أو من الجُهد - بضم الجيم - وهو الطاقة، لأن كل واحد من المجاهدين يبذل طاقته وكل قوته في دفع صاحبه عنه وهو في اصطلاح الشرع بذل الطاقة، واستفراغ الوسع في مدافعة العدو، وأطلق على قتال الكفار، لنصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله من باب الحقيقة العرفية، وهو على أربعة أنواع، وإليك الكلام عنها بالتفصيل:

الأول: جهاد النفس والشيطان ، ويكون بمحاربة النفس في ميولها وعدم تحقيق رغباتها ، وملذاتها ، وحبسها عن المعاصي كما يكون بمخالفة شياطين الإنس والجن، ودفع ما يزينون من الشهوات فإن الشيطان يحيل القبيح جميلاً، والجميل قبيحاً، ويظل يغري المؤمن بما يوسوس في نفسه حتى يوقعه في حباله «رب أعوذ بك من همزات الشياطين» ولذلك سَمَّاه الرسول بالجهاد الأكبر حين عاد من غزوة تبوك فقال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» .
وحكم هذا النوع من الجهاد أنه فرض عين، وكلف به المؤمنون منذ بدء الإسلام بل هو عام يتناول المأمورات والمنهيات إذ كل طاعة لله تعالى فعلاً كانت، أو تركاً تحتاج إلى مجاهدة النفس والهوى والشيطان. قال الإمام البوصيري:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما تخَضَّاك النَّصْح فأتَّهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حَكماً فَأَنْتَ تعرف كيد الخصم والحكم
الثاني : جهاد الكفار، أي قتال المشركين المخارين، ويكون بالنفس، وبالمال وباليد وباللسان وبالقلب، وما ذلك إلا تصريح جلي من الشرع، بأن يقوم كل فرد من المسلمين بما في وسعه وطاقته من ألوان الكفاح في سبيل

الحفاظة على الحياة والسلام.

فمن لا يقدر على حمل السلاح في الميدان فليعمل بيده ويبدل جهده في كل ما ينفع الجنود ، وَيُهَيِّئْ لَهُمْ طريق النصر كإدارة المصانع والمعامل ، وتقديم الدواء والغذاء والكساء ، وتحضير الآلات والقيام بالإمدادات ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «(مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا)» .

ومن كان له من مال وهو صاحب عذر - لا يصلح للحرب - فعليه أن يقدم المال ليشتري به السلاح أو ينفق منه على أولاده المحاربين وله بذلك أجر المجاهدين مصداقاً لقول سيّد المرسلين : «(وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أَهْلِهِ بَخِيرٌ فَقَدْ غَزَا)» .

سز باسار

ومن كان صاحب عذر ولا مال عنده فليجاهد بأى شكل يستطيع أدائه: يجاهد بلسانه في إقامة الحجة على الكفار، ودفع طعنهم، ومكافحة الحرب النفسية وفي التوعية والتعبئة الروحية ، وتقوية الروح المعنوية بين الصفوف الداخلية، وذلك ما أراده رسولنا محمد ﷺ حين قال: «(تجاهدون بأنفسكم، وأموالكم، وألسنتكم)» وهو واجب على كل مكلف يؤمن بدينه، ويحافظ على وطنه وعزّته، يشهد لذلك قول الله تعالى:

«وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ تُذِيرًا * فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا»^(١) . والجهاد بالقرآن إنما يكون في النواحي التي ذكرنا وهو فرض كفاية يقوم به العلماء المتخصصون في الشريعة الذين يتقنون أساليب المناظرة، ويعرفون طرق الحجاج والمحاورة ، ويدركون أحوال النفوس البشرية، وكيفية التأثير عليها .

(١) سورة الفرقان : الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

ومن كان لا يقدر على الجهاد لا بسلاحه، ولا بماله، ولا بلسانه فعليه أن يقوم بدوره الإيجابي في مزرعته، أو مصنعه، أو متجره، أو حراسة مرافق وديار المسلمين امتثالاً لقول سيد المرسلين: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

واستيفاء للتآزر الأخوي، والتكافل الحربي بين المسلمين يكلف الله العاجز عن المشاركة والعمل في أي ميدان كالأعمى، والهرم أن يجاهد بقلبه ونيتته، فينكر على هؤلاء المخاربين كفرهم، ومعاصيهم ويتمنى مخلصاً، أن لو كان قادراً حتى يمكنه أن يباشر القتال، ويشارك الأبطال، يؤيد ذلك ما صح أن رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، ودنا من المدينة قال: «إن في المدينة لأقواماً ما سرتهم من مسير ولا قطعتم من وادٍ إلا كانوا معكم فيه»، قالوا: يا رسول الله وهم في المدينة !! قال: «نعم وهم بالمدينة حبسهم العذر»، وقد ورد في الآثار أن عبد الله بن أم مكتوم - وهو رجل أعمى - كان يخرج مع الغزاة المجاهدين ويقول: ادفعوا إلى اللواء وأقيموني بين الصفين فإني لن أفر. وإن هذه التشريعات، وتلك النصوص الجليلة، لتعطينا الصورة الكاملة التي رسمها الإسلام للتضامن، والتعاون بين جميع المسلمين من أجل محاربة المشركين، أعداء الله، وأعداء الخلق والدين.

وهذا النوع من الجهاد قد يكون فرض عين، وقد يكون فرض كفاية، لأن الكفار إن دخلوا بلادنا ودهموا أرضنا أو أسروا مسلماً يتوقع فكاك أسرهم، أو عينه الإمام فإنه يكون فرض عين حتى على المرأة فتخرج إليه بدون إذن زوجها، قال الله تعالى في ذلك الشأن: «انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ

وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (١). وأمّا إذا كان الكفار ببلادهم، أو لم يعينه الإمام ولم تدع إليه حاجة فإنه يكون فرض كفاية.

الثالث: جهاد البغاة، فمن أجل المحافظة على الأمن الداخلي، واستقرار الأمة في أوضاعها، واستتباب النظام العام جعل الإسلام الخروج على طاعة الإمام ولو جائراً بغياً وظلماً، وجعل من يفعلون ذلك بغاةً مُجَاوِزِينَ الْحَدَّ، ويجب قتالهم إذا كانوا في منعة أى شوكة بكثرة أو قوة، ولهم رئيس مطاع يصدر عن رأيه، وقد خرجوا عن قبضة الإمام، وكان لهم تأويل سائغ من الكتاب أو السنة يستندون إليه بل يعتقدون به جواز الخروج، كتأويل الخارجين من أهل الجمل، وصفين، على الإمام علي كرم الله وجهه.

والدليل على وجوب قتالهم قول الله تعالى: «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ» وليس فيها ذكر الخروج على الإمام صريحاً لكنها تشملها لعمومها أو تقتضيه، لأنه إذا طلب القتال لبغى طائفة على طائفة كان طلبه من أجل البغى على الإمام أولى. ويدل على وجوب قتالهم أيضاً ما رواه أحمد بن حنبل أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمَعَ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ يَرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ أَوْ يَفْرُقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ» ويتعلق بقتال البغاة أمور وأحكام فرعية تطلب من كتب الفقه.

الرابع: جهاد أهل البدع والأهواء. وهم الذين لم يخرجوا عن طاعة السلطان - الحاكم العام - ولكنهم يتبعون الشهوات، ويرتكبون الموبقات، ويعيشون فساداً في

الأمة ، فيزينون للشباب الانحراف ، والخروج عن مكارم الأخلاق، ويغرون الفتيات حتى يقعن في مهاوى الردى ، وتأتى ثمرات الجريمة تعلن العار والفضيحة . وهؤلاء يجب جهادهم وزجرهم من كل مؤمن مكلف ليمتنع الضالُّ عن

شروره، ويندفع الخير في سبيله، ويظهر المجتمع، ويتهدَّب أفرادُه .

وفي هذا النوع يجاهد كلَّ مكلف على قدر استطاعته، واستعداده،

وإمكانياته كما قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكراً فليُغيِّرْهُ بيده، فإن لم

يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» .

وقد طالبت نصوص القرآن والأحاديث الكثيرة الأمة فرادى، وجماعات

بالاعتصام بحبل الله والتمسُّك بالأخلاق، والفضائل، والتخلُّى عن المعاصي

والرذائل، ومحاربة الآفات الفكرية، والخلقية، والاجتماعية، والأخذ على أيدي

العابثين المتحرِّفين عن طريق الدين.

ولا يجوز لمؤمن بالله ورسوله أن يقف على الحياد في معركة الخير والشر،

معركة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بل عليه أن يكون عضواً عاملاً

وعنصراً إيجابياً فقد قال ﷺ: «(لا تكونوا إمعة تقولون: إن أحسن الناس

أحسنًا وإن ظلموا ظلمنا ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا،

وإن ظلموا ألا تظلموا)» .

كما لا يجوز مداراة أهل السوء والمعاصي، ومجاملتهم، فإن ذلك مجلبة

الضرر، ومدعاة الهلاك، والخراب العام، قال تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ

الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»^(١) .

وخطب أبو بكر الصديق يوماً فقال: (يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية
 «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»^(١)
 وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى
 يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»

(١) من الآية ١٠٥ سورة المائدة .

سبب مشروعية القتال وأطوار تشريعه

لا نجد هنا مَفْرَأً من سرد بعض الأحداث، والأطوار التي مَرَّت بها دعوة محمد ورسالته لتكون شاهدَ صدق، وبرهان يقين على أنَّ محمدًا لم يكن رجل بَغْي، وعدوان، ولم تكن رسالته وسيلة للاستيلاء، والقهر، والقتال، والغلب للتوسع في الحكم مثلاً، ومعلوم للجميع أنَّ محمدًا لم يقصد يوماً الحصول على دنيا الناس، ولم يخطر بباله عرض تافه من المال، أو جاه، أو سلطان.

لقد شرع محمد يكلم الناس في الإسلام، ويعرض عليهم الدين الذي أرسله الله به، وكان ذلك في بطن مكة سرًّا لمدة ثلاث سنين أخذت فيها الدعاية للإسلام تنتشر في مكة، وتعمل عملها في أصحاب القلوب الكبيرة، فسرعان ما كانوا يتركون جاهليتهم الأولى، ويعتقون الدين الجديد، ويلتقون - في حُب وإعجاب - حول رسولهم، ويشرحون في حذر أصول فكرهم، وآيات الكتاب التي تتلى عليهم، ولما أمر الرسول ﷺ أن يجهر بالدعوة أظهرها على مَلَأِ مكة من فوق جبل الصفا القريب من المسجد الحرام. وأذن بطون قريش ورجالها بأنَّه نذير لهم من بين يدي عذابٍ شديد، فهاجت مكة وماجت، وأعلن صناديدها العداة لمحمد ودينه الجديد، وحزن محمد الرسول لهذا الإعراض المقرون بالتكذيب والتحدّي من قومه وعشيرته وعلى رأسهم عمه أبو هب، مع أنَّهم هم الذين كانوا بالأمس القريب يلقبونه «الصادق الأمين» غير أن الله واساه فأبان له بواطن أولئك المكذّبين وأنزل عليه قوله: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ»^(١).

(١) سورة الأنعام: آية ٣٣.

وبذلك أصبح على محمد أن يمضى في تبليغ دعوته ، وأن يجتاز ما يلقي أمامه من صعاب وعقبات ، وعلى المؤمنين برسالته أن يثبتوا ويصبروا ، وفاءً بحق الإيمان ، وتركيزاً لدعائم البنيان ، وحفاظاً على مصلحة الأجيال المقبلة ، فإن هؤلاء السابقين أصول عريقة لامتداد الرسالة إلى الأجيال من بعدهم حتى تعم المشارق والمغارب .

وإزاء صلابة اليقين ، وروعة الاستمسك بهذا الدين قرّر مشركو مكة محاربة الإسلام . وإيذاء الداخلين فيه بألوان التكال ، والإيلام ، فزلزلوا الأرض تحت أقدامهم ، وحرقوا بالحديد المحمى أجسامهم ، وبعض أطرافهم ، واستباحوا دماءهم وأموالهم ، وتآلفت جماعة للاستهزاء بالإسلام ورسوله والسخرية والتحقير بأتباعه ، واتّهموا محمداً نفسه بالجنون ، والشعر ، والكهانة ، والسحر ، وصّبوا جام غضبهم على المؤمنين به حتى ألجئتهم إلى الخروج ، والهجرة إلى أرض الحبشة ، ومع كل ذلك ظلّ محمد كالجبل الراسخ يصب الثقة في قلوب رجاله بمكة ، ويفيض عليهم ما أفاض الله على فؤاده من أمل رحيب في انتصار الإسلام ، وأنّ حزب الله هم المفلحون فوجد مشركو مكة أنّ بطشهم بالمستضعفين لم ينجح ، وأنّ وسائل التهكم والسخرية لم تغلح ، فإن أحداً ممن أسلم لم يترد عن دينه بعد أن شرفه الله به ، بل كان المسلمون يزدون .

ومن أجل ذلك فكروا في أسلوب آخر ، وتجربه جديدة ، وهى أن يعرضوا على محمد من الدنيا ما يشاء ، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة - وهو رجل هادئ رزين - وأخذ يقول له :

«يا بن أخى ، إنك منّا حيث قد علمت من المكان في النسب والحسب ، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها : إن كنت تريد بهذا الأمر مالاً جمّعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا فلا نقطع أمراً

دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرا). فلما فرغ عتبة من قوله تلا رسول الله عليه صدر سورة فصلت: ((حم * تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)) حتى وصل إلى قوله تعالى: ((فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)).

وبعد أن سمع عتبة آيات القرآن استيقظ ما كان نائماً من فكره، وبعد أن سمع الوعيد يهدر عليهم تحرك ما كان هاجراً من عاطفته، وقام من فوره ووضع يده على فم محمد وهو يقول: ((أمسك يا محمد، حسبك)).

وكأنه خشى أن الصواعق تلاحقه، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه فإن ظهر على العرب فهو فخر لقريش كلها، وعند ذلك اتهموه بأن سحر محمد خلب عقله وبدل من حاله.

ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد عجزوا أمامه تدرجوا من الأذى باللسان والقول، إلى الإيذاء بالعمل والبطش، فآلقوا عليه قرث جزور وهو ساجد عند الكعبة، وجلسوا قريباً منه يهزءون ويتضحكون، حتى جاءت فاطمة بنته ونحته عنه، وكثيراً ما كانوا يضعون القاذورات والنجاسة على بابه وفي طريقه، ويحثون التراب على رأسه، ووضع بعضهم ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً حتى جاء أبو بكر الصديق ودفعه بعيداً عن النبي وهو يقول: ((أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ))^(١).

(١) سورة - فر من الآية ٢٨.

واتجهوا كذلك إلى أتباعه بكل غيظ، وحنق يجردون عنهم ملابسهم ويعرضونهم للفتح الشمس ، ونار الصحراء الساخنة، ويضربون جلدهم بالسياط، ويسومونهم سوء العذاب، طمعاً في أن يردّوهم عن دينهم ويصرفوهم عن الالتفاف حول نبيهم، فلم يجدوا منهم إلا جبلاً راسخاً وقلوباً ثابتة ، وغزائم لا تلين .

بعد ذلك صمّت قريش على تجويع القوم، وحرمانهم، ومقاطعتها وحملهم على أضيّق الطرق، وأشق معيشة وأجفّ حياة، فاجتمع سادة قريش ورؤساء القوم، وكتبوا صحيفة المقاطعة لبني هاشم ومحمد وأتباعه ، وعلقوها بالكعبة، ولجأ المسلمون إلى شعب أبي طالب، وعاشوا فيه عامين ذاقوا مرارة الجوع فيهما، وأكلوا أوراق الشجر، وهم صابرون راسخون في عقيدتهم، متمسكون بدينهم، وحبيبهم، بل زادهم الحنة تعلقاً بمبادئهم، وثقةً بنصر الله لهم «كَتَبَ اللَّهُ لِأَغْلَبَيْنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^(١).

لقد هال قريشاً أمر المسلمين، وشأن محمد مع أتباعه المحبين، إنهم بهتوا بما ظهر أمامهم من حب وتفان، وإخلاص، وتضحيات في سبيل محمد ودعوته فلا بدّ لهم من موقف شديد، وتصرف جديد يقضون به على محمد ودعوته، فاجتمع رؤساؤهم في دار الندوة وتشاوروا ، وانتهى أمرهم إلى العزم على قتل محمد بأسلوب حسبه ناجحاً وجديداً يتفرّق به دم محمد على القبائل كلّها فلا يقدر بنو هاشم على حرب القبائل، ويقبلون الدية ولكن هيهات هيهات أن تنال قريش مأربها فليس دم محمد الرسول هيناً عند الله وكيف يتم لهم ذلك ومحمد في رعاية الله وحفظه؟

وقاية الله أغنت عن مضاعفة من الدروع وعن عالٍ من الأطم

(١) سورة المجادلة: آية ٢١.

وخرج النبي من هذه المؤامرة سليماً لم ينالوا منه نيلاً، وهاجر إلى المدينة كما هاجر أصحابه والمسلمون، ولم يبق بمكة إلا المستضعفون، واستبدت قريش هؤلاء الضعفاء، وفعلوا بهم أسوأ ما يفعل عدوّ بعده، وترك المهاجرون أموالهم، وديارهم، وأكثر عقارهم مؤثرين على ذلك دينهم، ورسولهم، وقلوبهم وربهم، هؤلاء هم الذين أخرجوا من ديارهم، وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون. لقد تمت هجرة محمد وأصحابه، والتحم المهاجرون بالأنصار، والتأم الشمل، وعقدت معاهدات التعايش السلمى بين اليهود والنبي، وقويت شوكة المسلمين، وأصبح للدعوة المحمدية مركز رئيسي تشع منه على من حوله - وهو المدينة المنورة، ومسجد الرسول العظيم.

وعند ذلك اشتدّ حنين المسلمين إلى الكعبة، والحرم، وفكر بعض المهاجرين في استرداد ما أجبر على تركه من الأموال، والديار حيث أصبح يشعر بالقوة والكثرة المسلحة معه، وتطلعوا إلى عون الله، ونصره فجاءهم البشري: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»^(١). أى يدفع عنهم غوائل عدوهم ومكايده ثم علل دفاعه عنهم بأنهم متصفون بكمال الأمانة، والإيمان فقال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ»^(٢) ثم أبان أن الوسيلة إلى النصر الموعود، هى الجهاد وقتال الظالمين في المعارك، وهو سبحانه يتولى أولياءه بنصره، ويحوطهم بعنائه، ويثبت أقدامهم، ويلقى الرعب في قلوب أعدائهم، وهذا في قوله عقب وعده السابق: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»^(٣) وكانت هذه أول آية تأذن للمسلمين بقتال مشركي قريش،

(١) سورة الحج: آية ٣٨.

(٢) نفس الآية السابقة.

(٣) سورة الحج: آية ٣٩.

وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة التي وقعت فيها غزوة بدر الكبرى إبان شهر رمضان المعظم .

واعتبر ذلك أول تشريع للجهاد يبيح القتال مع مشركي قريش ثم أمرهم بذلك صريحاً في قوله تعالى: «وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْبَضُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ»^(١).

وظل الأمر مقصوراً على قتال قريش دون سائر العرب حتى انضم إلى قريش غيرها من قبائل العرب واتحدوا معهم على حرب محمد ودعوته وأتباعه فأمر الله المسلمين بقتال المشركين كافة، قال تعالى: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ»^(٢). واستمر الوضع كذلك حتى خان اليهود عهد رسول الله، ونقضوا اتفاقهم، وساعدوا المشركين في حروبهم ضد المسلمين، وتآمروا على محمد، وحاولوا قتله غيلةً وغدرًا، فأمر الله رسوله بقتالهم، ونبذ عهودهم جهراً، قال تعالى: «الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ»^(٣). أى اطرح العهد الذي عقد بينك وبينهم على سواء في العلم بذلك، لأنهم خونة غادرون وبقي شأن الجهاد على ذلك

(١) سورة البقرة: الآيات ١٩٠ - ١٩٣ .

(٢) سورة التوبة: آية ٣٦ .

(٣) سورة الأنفال: الآيات ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ .

حتى نزلت على الرسول سورة التوبة في العام التاسع من الهجرة وفيها أمر الله بقتال أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى، لفساد عقائدهم، ولأنهم بدلوا وحرفوا كتبهم، وخالفوا ما كان عليه أنبياءهم في التحليل، والتحريم، قال تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^(١).

ولتعلم أن القتال كان ممنوعاً في الأشهر الحرم، ثم أُبيح فيها بعد نزول قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ»^(٢). والآن قد ظهر لك أن القتال كان محرماً قبل الهجرة، ثم أمر ﷺ بقتال من قاتله من المشركين، دفعاً للعدوان، ثم أذن له في قتال اليهود لغدرهم وخياناتهم المتكررة، ثم أمر الله بقتال أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لانخراطهم وضلالهم وأبيح الابتداء به في غير الأشهر الحرم، ثم أمر الله بالجهاد مطلقاً، والآيات التي تحت على الجهاد، وبيان فضله ومزاياه في القرآن عديدة، والأحاديث الواردة في شأنه كثيرة.

(١) سورة التوبة: آية ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ - ٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٥ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٨ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ - ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ - ٩٦ - ٩٧ - ٩٨ - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ - ١٠٣ - ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ - ١١٥ - ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٤ - ١٢٥ - ١٢٦ - ١٢٧ - ١٢٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢ - ١٥٣ - ١٥٤ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧ - ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٠ - ١٧١ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٤ - ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢١٤ - ٢١٥ - ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٥ - ٢٢٦ - ٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٣٣ - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٧١ - ٢٧٢ - ٢٧٣ - ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٨ - ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٤ - ٢٩٥ - ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ - ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١٢ - ٣١٣ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٧ - ٣١٨ - ٣١٩ - ٣٢٠ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٢٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ - ٣٢٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ - ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ - ٣٣٧ - ٣٣٨ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ - ٣٤٤ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٣٤٨ - ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١ - ٣٥٢ - ٣٥٣ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٦ - ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ - ٣٦٢ - ٣٦٣ - ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ - ٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧٠ - ٣٧١ - ٣٧٢ - ٣٧٣ - ٣٧٤ - ٣٧٥ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٧٨ - ٣٧٩ - ٣٨٠ - ٣٨١ - ٣٨٢ - ٣٨٣ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٨٦ - ٣٨٧ - ٣٨٨ - ٣٨٩ - ٣٩٠ - ٣٩١ - ٣٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٤ - ٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ - ٤٠١ - ٤٠٢ - ٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ - ٤١١ - ٤١٢ - ٤١٣ - ٤١٤ - ٤١٥ - ٤١٦ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ - ٤٢٨ - ٤٢٩ - ٤٣٠ - ٤٣١ - ٤٣٢ - ٤٣٣ - ٤٣٤ - ٤٣٥ - ٤٣٦ - ٤٣٧ - ٤٣٨ - ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ - ٤٤٢ - ٤٤٣ - ٤٤٤ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٤٧ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٥٢ - ٤٥٣ - ٤٥٤ - ٤٥٥ - ٤٥٦ - ٤٥٧ - ٤٥٨ - ٤٥٩ - ٤٦٠ - ٤٦١ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ - ٤٦٥ - ٤٦٦ - ٤٦٧ - ٤٦٨ - ٤٦٩ - ٤٧٠ - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ - ٤٧٤ - ٤٧٥ - ٤٧٦ - ٤٧٧ - ٤٧٨ - ٤٧٩ - ٤٨٠ - ٤٨١ - ٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٨٤ - ٤٨٥ - ٤٨٦ - ٤٨٧ - ٤٨٨ - ٤٨٩ - ٤٩٠ - ٤٩١ - ٤٩٢ - ٤٩٣ - ٤٩٤ - ٤٩٥ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٨ - ٤٩٩ - ٥٠٠ - ٥٠١ - ٥٠٢ - ٥٠٣ - ٥٠٤ - ٥٠٥ - ٥٠٦ - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ - ٥١٠ - ٥١١ - ٥١٢ - ٥١٣ - ٥١٤ - ٥١٥ - ٥١٦ - ٥١٧ - ٥١٨ - ٥١٩ - ٥٢٠ - ٥٢١ - ٥٢٢ - ٥٢٣ - ٥٢٤ - ٥٢٥ - ٥٢٦ - ٥٢٧ - ٥٢٨ - ٥٢٩ - ٥٣٠ - ٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٣٣ - ٥٣٤ - ٥٣٥ - ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨ - ٥٣٩ - ٥٤٠ - ٥٤١ - ٥٤٢ - ٥٤٣ - ٥٤٤ - ٥٤٥ - ٥٤٦ - ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩ - ٥٥٠ - ٥٥١ - ٥٥٢ - ٥٥٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ - ٥٥٦ - ٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٥٩ - ٥٦٠ - ٥٦١ - ٥٦٢ - ٥٦٣ - ٥٦٤ - ٥٦٥ - ٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٦٨ - ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٢ - ٥٧٣ - ٥٧٤ - ٥٧٥ - ٥٧٦ - ٥٧٧ - ٥٧٨ - ٥٧٩ - ٥٨٠ - ٥٨١ - ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٤ - ٥٨٥ - ٥٨٦ - ٥٨٧ - ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٠ - ٥٩١ - ٥٩٢ - ٥٩٣ - ٥٩٤ - ٥٩٥ - ٥٩٦ - ٥٩٧ - ٥٩٨ - ٥٩٩ - ٦٠٠ - ٦٠١ - ٦٠٢ - ٦٠٣ - ٦٠٤ - ٦٠٥ - ٦٠٦ - ٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩ - ٦١٠ - ٦١١ - ٦١٢ - ٦١٣ - ٦١٤ - ٦١٥ - ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ - ٦١٩ - ٦٢٠ - ٦٢١ - ٦٢٢ - ٦٢٣ - ٦٢٤ - ٦٢٥ - ٦٢٦ - ٦٢٧ - ٦٢٨ - ٦٢٩ - ٦٣٠ - ٦٣١ - ٦٣٢ - ٦٣٣ - ٦٣٤ - ٦٣٥ - ٦٣٦ - ٦٣٧ - ٦٣٨ - ٦٣٩ - ٦٤٠ - ٦٤١ - ٦٤٢ - ٦٤٣ - ٦٤٤ - ٦٤٥ - ٦٤٦ - ٦٤٧ - ٦٤٨ - ٦٤٩ - ٦٥٠ - ٦٥١ - ٦٥٢ - ٦٥٣ - ٦٥٤ - ٦٥٥ - ٦٥٦ - ٦٥٧ - ٦٥٨ - ٦٥٩ - ٦٦٠ - ٦٦١ - ٦٦٢ - ٦٦٣ - ٦٦٤ - ٦٦٥ - ٦٦٦ - ٦٦٧ - ٦٦٨ - ٦٦٩ - ٦٧٠ - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٣ - ٦٧٤ - ٦٧٥ - ٦٧٦ - ٦٧٧ - ٦٧٨ - ٦٧٩ - ٦٨٠ - ٦٨١ - ٦٨٢ - ٦٨٣ - ٦٨٤ - ٦٨٥ - ٦٨٦ - ٦٨٧ - ٦٨٨ - ٦٨٩ - ٦٩٠ - ٦٩١ - ٦٩٢ - ٦٩٣ - ٦٩٤ - ٦٩٥ - ٦٩٦ - ٦٩٧ - ٦٩٨ - ٦٩٩ - ٧٠٠ - ٧٠١ - ٧٠٢ - ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥ - ٧٠٦ - ٧٠٧ - ٧٠٨ - ٧٠٩ - ٧١٠ - ٧١١ - ٧١٢ - ٧١٣ - ٧١٤ - ٧١٥ - ٧١٦ - ٧١٧ - ٧١٨ - ٧١٩ - ٧٢٠ - ٧٢١ - ٧٢٢ - ٧٢٣ - ٧٢٤ - ٧٢٥ - ٧٢٦ - ٧٢٧ - ٧٢٨ - ٧٢٩ - ٧٣٠ - ٧٣١ - ٧٣٢ - ٧٣٣ - ٧٣٤ - ٧٣٥ - ٧٣٦ - ٧٣٧ - ٧٣٨ - ٧٣٩ - ٧٤٠ - ٧٤١ - ٧٤٢ - ٧٤٣ - ٧٤٤ - ٧٤٥ - ٧٤٦ - ٧٤٧ - ٧٤٨ - ٧٤٩ - ٧٥٠ - ٧٥١ - ٧٥٢ - ٧٥٣ - ٧٥٤ - ٧٥٥ - ٧٥٦ - ٧٥٧ - ٧٥٨ - ٧٥٩ - ٧٦٠ - ٧٦١ - ٧٦٢ - ٧٦٣ - ٧٦٤ - ٧٦٥ - ٧٦٦ - ٧٦٧ - ٧٦٨ - ٧٦٩ - ٧٧٠ - ٧٧١ - ٧٧٢ - ٧٧٣ - ٧٧٤ - ٧٧٥ - ٧٧٦ - ٧٧٧ - ٧٧٨ - ٧٧٩ - ٧٨٠ - ٧٨١ - ٧٨٢ - ٧٨٣ - ٧٨٤ - ٧٨٥ - ٧٨٦ - ٧٨٧ - ٧٨٨ - ٧٨٩ - ٧٩٠ - ٧٩١ - ٧٩٢ - ٧٩٣ - ٧٩٤ - ٧٩٥ - ٧٩٦ - ٧٩٧ - ٧٩٨ - ٧٩٩ - ٨٠٠ - ٨٠١ - ٨٠٢ - ٨٠٣ - ٨٠٤ - ٨٠٥ - ٨٠٦ - ٨٠٧ - ٨٠٨ - ٨٠٩ - ٨١٠ - ٨١١ - ٨١٢ - ٨١٣ - ٨١٤ - ٨١٥ - ٨١٦ - ٨١٧ - ٨١٨ - ٨١٩ - ٨٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٢ - ٨٢٣ - ٨٢٤ - ٨٢٥ - ٨٢٦ - ٨٢٧ - ٨٢٨ - ٨٢٩ - ٨٣٠ - ٨٣١ - ٨٣٢ - ٨٣٣ - ٨٣٤ - ٨٣٥ - ٨٣٦ - ٨٣٧ - ٨٣٨ - ٨٣٩ - ٨٤٠ - ٨٤١ - ٨٤٢ - ٨٤٣ - ٨٤٤ - ٨٤٥ - ٨٤٦ - ٨٤٧ - ٨٤٨ - ٨٤٩ - ٨٥٠ - ٨٥١ - ٨٥٢ - ٨٥٣ - ٨٥٤ - ٨٥٥ - ٨٥٦ - ٨٥٧ - ٨٥٨ - ٨٥٩ - ٨٦٠ - ٨٦١ - ٨٦٢ - ٨٦٣ - ٨٦٤ - ٨٦٥ - ٨٦٦ - ٨٦٧ - ٨٦٨ - ٨٦٩ - ٨٧٠ - ٨٧١ - ٨٧٢ - ٨٧٣ - ٨٧٤ - ٨٧٥ - ٨٧٦ - ٨٧٧ - ٨٧٨ - ٨٧٩ - ٨٨٠ - ٨٨١ - ٨٨٢ - ٨٨٣ - ٨٨٤ - ٨٨٥ - ٨٨٦ - ٨٨٧ - ٨٨٨ - ٨٨٩ - ٨٩٠ - ٨٩١ - ٨٩٢ - ٨٩٣ - ٨٩٤ - ٨٩٥ - ٨٩٦ - ٨٩٧ - ٨٩٨ - ٨٩٩ - ٩٠٠ - ٩٠١ - ٩٠٢ - ٩٠٣ - ٩٠٤ - ٩٠٥ - ٩٠٦ - ٩٠٧ - ٩٠٨ - ٩٠٩ - ٩١٠ - ٩١١ - ٩١٢ - ٩١٣ - ٩١٤ - ٩١٥ - ٩١٦ - ٩١٧ - ٩١٨ - ٩١٩ - ٩٢٠ - ٩٢١ - ٩٢٢ - ٩٢٣ - ٩٢٤ - ٩٢٥ - ٩٢٦ - ٩٢٧ - ٩٢٨ - ٩٢٩ - ٩٣٠ - ٩٣١ - ٩٣٢ - ٩٣٣ - ٩٣٤ - ٩٣٥ - ٩٣٦ - ٩٣٧ - ٩٣٨ - ٩٣٩ - ٩٤٠ - ٩٤١ - ٩٤٢ - ٩٤٣ - ٩٤٤ - ٩٤٥ - ٩٤٦ - ٩٤٧ - ٩٤٨ - ٩٤٩ - ٩٥٠ - ٩٥١ - ٩٥٢ - ٩٥٣ - ٩٥٤ - ٩٥٥ - ٩٥٦ - ٩٥٧ - ٩٥٨ - ٩٥٩ - ٩٦٠ - ٩٦١ - ٩٦٢ - ٩٦٣ - ٩٦٤ - ٩٦٥ - ٩٦٦ - ٩٦٧ - ٩٦٨ - ٩٦٩ - ٩٧٠ - ٩٧١ - ٩٧٢ - ٩٧٣ - ٩٧٤ - ٩٧٥ - ٩٧٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨ - ٩٧٩ - ٩٨٠ - ٩٨١ - ٩٨٢ - ٩٨٣ - ٩٨٤ - ٩٨٥ - ٩٨٦ - ٩٨٧ - ٩٨٨ - ٩٨٩ - ٩٩٠ - ٩٩١ - ٩٩٢ - ٩٩٣ - ٩٩٤ - ٩٩٥ - ٩٩٦ - ٩٩٧ - ٩٩٨ - ٩٩٩ - ١٠٠٠ - ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ١٠٠٣ - ١٠٠٤ - ١٠٠٥ - ١٠٠٦ - ١٠٠٧ - ١٠٠٨ - ١٠٠٩ - ١٠١٠ - ١٠١١ - ١٠١٢ - ١٠١٣ - ١٠١٤ - ١٠١٥ - ١٠١٦ - ١٠١٧ - ١٠١٨ - ١٠١٩ - ١٠٢٠ - ١٠٢١ - ١٠٢٢ - ١٠٢٣ - ١٠٢٤ - ١٠٢٥ - ١٠٢٦ - ١٠٢٧ - ١٠٢٨ - ١٠٢٩ - ١٠٣٠ - ١٠٣١ - ١٠٣٢ - ١٠٣٣ - ١٠٣٤ - ١٠٣٥ - ١٠٣٦ - ١٠٣٧ - ١٠٣٨ - ١٠٣٩ - ١٠٤٠ - ١٠٤١ - ١٠٤٢ - ١٠٤٣ - ١٠٤٤ - ١٠٤٥ - ١٠٤٦ - ١٠٤٧ - ١٠٤٨ - ١٠٤٩ - ١٠٥٠ - ١٠٥١ - ١٠٥٢ - ١٠٥٣ - ١٠٥٤ - ١٠٥٥ - ١٠٥٦ - ١٠٥٧ - ١٠٥٨ - ١٠٥٩ - ١٠٦٠ - ١٠٦١ - ١٠٦٢ - ١٠٦٣ - ١٠٦٤ - ١٠٦٥ - ١٠٦٦ - ١٠٦٧ - ١٠٦٨ - ١٠٦٩ - ١٠٧٠ - ١٠٧١ - ١٠٧٢ - ١٠٧٣ - ١٠٧٤ - ١٠٧٥ - ١٠٧٦ - ١٠٧٧ - ١٠٧٨ - ١٠٧٩ - ١٠٨٠ - ١٠٨١ - ١٠٨٢ - ١٠٨٣ - ١٠٨٤ - ١٠٨٥ - ١٠٨٦ - ١٠٨٧ - ١٠٨٨ - ١٠٨٩ - ١٠٩٠ - ١٠٩١ - ١٠٩٢ - ١٠٩٣ - ١٠٩٤ - ١٠٩٥ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧ - ١٠٩٨ - ١٠٩٩ - ١١٠٠ - ١١٠١ - ١١٠٢ - ١١٠٣ - ١١٠٤ - ١١٠٥ - ١١٠٦ - ١١٠٧ - ١١٠٨ - ١١٠٩ - ١١١٠ - ١١١١ - ١١١٢ - ١١١٣ - ١١١٤ - ١١١٥ - ١١١٦ - ١١١٧ - ١١١٨ - ١١١٩ - ١١٢٠ - ١١٢١ - ١١٢٢ - ١١٢٣ - ١١٢٤ - ١١٢٥ - ١١٢٦ - ١١٢٧ - ١١٢٨ - ١١٢٩ - ١١٣٠ - ١١٣١ - ١١٣٢ - ١١٣٣ - ١١٣٤ - ١١٣٥ - ١١٣٦ - ١١٣٧ - ١١٣٨ - ١١٣٩ - ١١٤٠ - ١١٤١ - ١١٤٢ - ١١٤٣ - ١١٤٤ - ١١٤٥ - ١١٤٦ - ١١٤٧ - ١١٤٨ - ١١٤٩ - ١١٥٠ - ١١٥١ - ١١٥٢ - ١١٥٣ - ١١٥٤ - ١١٥٥ - ١١٥٦ - ١١٥٧ - ١١٥٨ - ١١٥٩ - ١١٦٠ - ١١٦١ - ١١٦٢ - ١١٦٣ - ١١٦٤ - ١١٦٥ - ١١٦٦ - ١١٦٧ - ١١٦٨ - ١١٦٩ - ١١٧٠ - ١١٧١ - ١١٧٢ - ١١٧٣ - ١١٧٤ - ١١٧٥ - ١١٧٦ - ١١٧٧ - ١١٧٨ - ١١٧٩ - ١١٨٠ - ١١٨١ - ١١٨٢ - ١١٨٣ - ١١٨٤ - ١١٨٥ - ١١٨٦ - ١١٨٧ - ١١٨٨ - ١١٨٩ - ١١٩٠ - ١١٩١ - ١١٩٢ - ١١٩٣ - ١١٩٤ - ١١٩٥ - ١١٩٦ - ١١٩٧ - ١١٩٨ - ١١٩٩ - ١٢٠٠ - ١٢٠١ - ١٢٠٢ - ١٢٠٣ - ١٢٠٤ - ١٢٠٥ - ١٢٠٦ - ١٢٠٧ - ١٢٠٨ - ١٢٠٩ - ١٢١٠ - ١٢١١ - ١٢١٢ - ١٢١٣ - ١٢١٤ - ١٢١٥ - ١٢١٦ - ١٢١٧ - ١٢١٨ - ١٢١٩ - ١٢٢٠ - ١٢٢١ - ١٢٢٢ - ١٢٢٣ - ١٢٢٤ - ١٢٢٥ - ١٢٢٦ - ١٢٢٧ - ١٢٢٨ - ١٢٢٩ - ١٢٣٠ - ١٢٣١ - ١٢٣٢ - ١٢٣٣ - ١٢٣٤ - ١٢٣٥ - ١٢٣٦ - ١٢٣٧ - ١٢٣٨ - ١٢٣٩ - ١٢٤٠ - ١٢٤١ - ١٢٤٢ - ١٢٤٣ - ١٢٤٤ - ١٢٤٥ - ١٢٤٦ - ١٢٤٧ - ١٢٤٨ - ١٢٤٩ - ١٢٥٠ - ١٢٥١ - ١٢٥٢ - ١٢٥٣ - ١٢٥٤ - ١٢٥٥ - ١٢٥٦ - ١٢٥٧ - ١٢٥٨ - ١٢٥٩ - ١٢٦٠ - ١٢٦١ - ١٢٦٢ - ١٢٦٣ - ١٢٦٤ - ١٢٦٥ - ١٢٦٦ - ١٢٦٧ - ١٢٦٨ - ١٢٦٩ - ١٢٧٠ - ١٢٧١ - ١٢٧٢ - ١٢٧٣ - ١٢٧٤ - ١٢٧٥ - ١٢٧٦ - ١٢٧٧ - ١٢٧٨ - ١٢٧٩ - ١٢٨٠ - ١٢٨١ - ١٢٨٢ - ١٢٨٣ - ١٢٨٤ - ١٢٨٥ - ١٢٨٦ - ١٢٨٧ - ١٢٨٨ - ١٢٨٩ - ١٢٩٠ - ١٢٩١ - ١٢٩٢ - ١٢٩٣ - ١٢٩٤ - ١٢٩٥ - ١٢٩٦ - ١٢٩٧ - ١٢٩٨ - ١٢٩٩ - ١٣٠٠ - ١٣٠١ - ١٣٠٢ - ١٣٠٣ - ١٣٠٤ - ١٣٠٥ - ١٣٠٦ - ١٣٠٧ - ١٣٠٨ - ١٣٠٩ - ١٣١٠ - ١٣١١ - ١٣١٢ - ١٣١٣ - ١٣١٤ - ١٣١٥ - ١٣١٦ - ١٣١٧ - ١٣١٨ - ١٣١٩ - ١٣٢٠ - ١٣٢١ - ١٣٢٢ - ١٣٢٣ - ١٣٢٤ - ١٣٢٥ - ١٣٢٦ - ١٣٢٧ - ١٣٢٨ - ١٣٢٩ - ١٣٣٠ - ١٣٣١ - ١٣٣٢ - ١٣٣٣ - ١٣٣٤ - ١٣٣٥ - ١٣٣٦ - ١٣٣٧ - ١٣٣٨ - ١٣٣٩ - ١٣٤٠ - ١٣٤١ - ١٣٤٢ - ١٣٤٣ - ١٣٤٤ - ١٣٤٥ - ١٣٤٦ - ١٣٤٧ - ١٣٤٨ - ١٣٤٩ - ١٣٥٠ - ١٣٥١ - ١٣٥٢ - ١٣٥٣ - ١٣٥٤ - ١٣٥٥ - ١٣٥٦ - ١٣٥٧ - ١٣٥٨ - ١٣٥٩ - ١٣٦٠ - ١٣٦١ - ١٣٦٢ - ١٣٦٣ - ١٣٦٤ - ١٣٦٥ - ١٣٦٦ - ١٣٦٧ - ١٣٦٨ - ١٣٦٩ - ١٣٧٠ - ١٣٧١ - ١٣٧٢ - ١٣٧٣ - ١٣٧٤ - ١٣٧٥ - ١٣٧٦ - ١٣٧٧ - ١٣٧٨ - ١٣٧٩ - ١٣٨٠ - ١٣٨١ - ١٣٨٢ - ١٣٨٣ - ١٣٨٤ - ١٣٨٥ - ١٣٨٦ - ١٣٨٧ - ١٣٨٨ - ١٣٨٩ - ١٣٩٠ - ١٣٩١ - ١٣٩٢ - ١٣٩٣ - ١٣٩٤ - ١٣٩٥ - ١٣٩٦ - ١٣٩٧ - ١٣٩٨ - ١٣٩٩ - ١٤٠٠ - ١٤٠١ - ١٤٠٢ - ١٤٠٣ - ١٤٠٤ - ١٤٠٥ - ١٤٠٦ - ١٤٠٧ - ١٤٠٨ - ١٤٠٩ - ١٤١٠ - ١٤١١ - ١٤١٢ - ١٤١٣ - ١٤١٤ - ١٤١٥ - ١٤١٦ - ١٤١٧ - ١٤١٨ - ١٤١٩ - ١٤٢٠ - ١٤٢١ - ١٤٢٢ - ١٤٢٣ - ١٤٢٤ - ١٤٢

التحرية

التقت عند رسول الله ﷺ محاط العظمة، واشتبكت لديه وشائج^(١) القربي من الله، والحظوى في الدنيا والآخرة، وتطلعت إليه أنظارُ الخليقة أجمعين، يتسّمون أريجًا من شذاه، ويرمقون زهرة من جناه، فهو ملء السمع والبصر، ومحط العين والفؤاد.

وكان من أشدّ الناس التصاقًا بالرسول، وتزاحمًا على حوضه، وتنافسًا إلى حماه أمهات المؤمنين. وليس بدعًا أن تسلك إلى قلوب هؤلاء النساء الطاهرات عقارب الغيرة حبًا فيه، وأثرة عليه. فتدب دبيبًا خفيًا، وتسرى إلى الفؤاد فتورى فيه نارًا لا ينطفئ لظاها إلا بالقرب من نبي الله الكريم. ألسن من النسء اللاتي غلبتهن قوة العاطفة، وتملكتهنّ دوافع الغيرة والأثرة في كل عصر وزمان؟ أو ليست قلوبهنّ تصبو، ونفوسهنّ تحنو، وآمالهنّ تتدافع، ورجاؤهنّ يفيض لخير الناس أجمعين؟ كان النبي الكريم يفيض قلبه بعاطفة الأبوة، وتحنو نفسه إلى بنته زينب، فإذا رآها أنس بها، واطمأن إليها، وانشرح صدره لأنها ثمرة نفسه وحبّة قلبه حتى إذا أفل نجمها فذهبت إلى جوار ربها، استوحش إليها، وامتدت آماله إلى الولد؛ ليمسح عن قلبه انقباض الوحدة وأثر الفاجعة. وما زال الرسول الكريم في وحشته وانقباضه، يدفع شوق أن يكتحل بسنا نور ابن كريم، وهو في حنينه ووحشته تدب في قلبه حسرة وأسى، لأنه شارف الستين من عمره وأوشك مصباح حياته أن ينطفئ، فما هو ببالغ أملًا يشيمه كل والد، ولا يتنفس بروح يتسمه كل أب يفيض قلبه بالعطف والحنان.

وحملت إلى النبي الكريم من المقوقس وإلى مصر هدايا، ومن بينها مارية القبطية، فقبلها النبي وأنزلها منزلة السرارى، ولم يهبها ما وهب لأزواجه، فلم

(١) الوشائج: جمع وشيجة، وهى الصلة والرابطة.

يخصص لها منزلاً بجوار المسجد كغيرها من أمهات المؤمنين، بل أنزلها بالعالية من ضواحي المدينة، في منزل يحيط به الكرم والزرع والنخيل. وظل الرسول العظيم يختلف إليها، ولها منه ما يحل للرجل فيمن ملكت يمينه. حتى إذا حملت مارية وولدت إبراهيم، تفجرت ينباع البشر والسرور في قلب أبيه، وأنست نفس الوالد عطفاً ورحمة وحناناً بولده الأعز الميمون، وارتفعت مكانة مارية، فصارت إلى مصاف الزوجات المقربات. وازدادت بذلك حظوة عنده ومكانة ملأت قلبها بالمسرة، وانقلبت إلى ربها بالشكران والتسبيح. وكان النبي حفيّاً بولده، قريير العين به، رضى النفس له، مطمئن الفؤاد لمولده، فصار يختلف إلى منزل مارية، يطالع كل يوم في أفقه مشرقَ هذا الغلام، ينعم بابتسامته البرينة الطاهرة ويفيض عليه فيضاً كثيراً من حنان الأبوة، وطهارة النبوة، ويغمره بهذا الفيض الإلهي العميم. وقد حمله يوماً بين ذراعيه إلى عائشة، فنفس^(١) عليه، وحببتها الغيرة أن تمسّ وتبش للغلام الكريم.

كذلك كانت الأثرة والغيرة تدب في قلوب نساء النبي، كلما رأين منه إقبالاً على مارية وحبّاً وتعلقاً بولدها.

وكان الرسول الكريم يخص نساءه بمكانة محترمة، وينزلهن منزلاً عزيزاً، ويفتحهنّ أبداً بعطف وإجلال وتكريم على غير عادة العرب في الجاهلية، فلما رأينه يفيض عليهن من عظمته وكرمه. جنحت^(٢) نفوسهن، فتغالين في الاستمتاع بحريتهن، واتخذن من بعض الحوادث مسلكاً إلى إغضاب الرسول.

(١) نفس: ضنت عليه.

(٢) جنحت: مالت.

كان النبي في بيت حفصة، فاستأذنته أن تذهب إلى أبيها فأذن لها، وفي غصون غيبتها جاءت مارية فأقامت مع النبي زمناً، فلما حضرت حفصة ورأت مارية في بيتها، فانتظرت خروجها وقلبها يشتعل وجداً وغيرة، ولما خرجت مارية دخلت حفصة على النبي، فقالت: لقد رأيت مَنْ كان عندك، والله لقد سببتني، وما كنت تصنعها لولا هواي عليك.

وأدرك رسول الله ﷺ أن الغيرة قد تدفع حفصة إلى إذاعة ما رأت والتحدث به إلى غيرها من الأزواج، وفي ذلك ما فيه من إثارة لغيرهن وتحريك لحفيظتهن، فأراد إرضاءها، فحلف لها أن مارية حرام عليه إذا هي لم تذكر ما رأت شيئاً، فوعده أن تكف عن إذاعة ما كان.

لكن الطبيعة النسوية كانت أقوى جماعاً، إذ تحركت الغيرة تأكل صدرها، فلم تطق كتمان ما وعدت بكتمانها فأسرته إلى عائشة، وذاع الأمر بين نساء النبي كلهن.

فاكثر من الحديث في شأنه والجدال في أمره، والنبي الكريم ليس خلياً لهذا النوع من اللجاج والغيرة، فأراد أن يلقي عليهن درساً ليكون عبرة لهن وتذكراً.

عزم النبي أن ينقطع عن نسائه شهراً كاملاً، تأديباً وردعاً لهن عما تمارين فيه من ائتمار به، وليخفف فيهن عوامل تلك الغيرة الحمقاء فأدى به عزمه أن ذهب إلى خزانة له، يرقى إليها على جذع من نخل، وليس بها من فراش إلا حصير جاف خشن، وحسبه هناك لقيمات من شعير يُقمن صلبه ثم هو يُجلس غلامه رباحاً على سُدِّها، دفعاً للجاجة الزائرين.

والرسول ﷺ في خلوته يتجّه بتفكيره إلى ربه ، ويدبر أمر المسلمين في الجزيرة وفيما وراء الجزيرة ، والمسلمون في همّ مقيم مقعد، وشغلهم الشاغل انقطاع نبيهم في خلوته ، حتى لقد شاع بينهم أنه طلق حفصة بنت عمر، بعد أن كان من إفشائها ما وعدت بكتمانه ، أو أنه مطلق نساءه جميعاً . كانوا يهمسون بهذا والحسرة تملأ قلوبهم ، والهم يقض مضاجعهم ، وقد أقام الناس بالمسجد يعثون بالحصي ، ويجيلون العيون زائغة ، لا تستقر على حال من القلق، وبينما هم كذلك إذ ينتفض عمر قائماً من بينهم، فيقصد إلى مقام النبي، ويستأذن غلامه رباحاً، فإذا دخل الغلام إلى سيده رجع إلى ((عمر)) ووقف فلم يجب، فرفع ابن الخطاب صوته بالاستئذان والإلحاح، فيؤذن له، فإذا هو بين يدي الرسول، ثم يجيل بصره في الحجرة ويكي، والنبي يقول له: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فيذكر للنبي سبب بكائه، فيرده النبي إلى الصواب بقول رفيق كريم.

ثم قال ((عمر)): يا رسول الله ، ما يشقُّ عليك من أمر النساء؟ إن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال ، وعمر وأبا بكر والمؤمنين أجمعين ، ثم يقبل عمر على النبي فيحدثه بحديث يسرى عن نفسه ويضحكه . فلما آنس عمر منه ذلك ذكر له خبر المسلمين بالمسجد ، وكلامهم وآلامهم ، ورجا النبي أن يُفضى إليه بالقول الفصل في أمر نساءه ، فذكر له الرسول أنه لم يطلقهن، فنزل ((عمر)) إلى المسجد ونادى بأعلى صوته: إن النبي لم يطلق نساءه ، فاستبشر الناس، وسرت إلى قلوبهم الطمأنينة، واهتزوا هزّة الفرح والسرور، وإذا النبي مقبل على نساءه تائبات بين يديه

عابدات، حتى نزل الروح الأمين يحمل رسالة الله الكريم :

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرِضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَتَبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا» (١).

(١) الآيات من ١ : ٥ سورة التحريم .

بنو النضير

من أين أقبلت يا عمرو؟ وما ذلك الأمر الذي يتخالج بين عينيك! ليخيل إلى أنك فعلت عظيماً ، وأنتك تحمل في طيات صدرك شيئاً كبيراً!!

قال عمرو بن أمية الضمري فاتك الجاهلية وفارس الإسلام: أجل ! لقد أصبت ما في نفسي ولم تبعد ، صادفت في طريقي إلى المدينة غرة من رجلين من بنى عامر فقتلتهم ، ورَويت الثرى بدمائهما ، ولعلى أكون قد أطفأت وقدة غيظ تتسعر في صدور المسلمين ، مما أصاب فينا بنو عامر يوم بئر معونة^(١).

قال محدثه: يا بؤس ما صنعت ! ويا خرق ما رأيت ! لقد فعلت شراً من حيث حسبت أنك أردت الخير ، وركبت مركباً حراماً من حيث أردت الثأر، إنك بما فعلت قد أوطأت المسلمين العشوة^(٢) وأردقم على الحسك والسعدان^(٣)، ذانك العامريان اللذان قتلتهم ، وحسبت أنك أدركت الثأر فيهما، إن هما إلا رجلان معهما من رسول الله عَهْدٌ وجوار، ولهما حرمة وذمام، انطلق إليه تجد عنده الخبر اليقين.

وأدرك عمرو أنه قد ضل فيما أراد ، وأنه ارتكب خطأ فيما فعل ، فخاف عاقبة أمره ، وذهب إلى رسول الله ﷺ خائفاً يترقب.

قال: يا رسول الله ، لقد قتلت العامريين اللذين صادفاني في طريقي إلى المدينة، وحسبت أني أصبت فيهما من بنى عامر ثأراً. وما أنْ قَصَّ على الرسول هذا الخبر حتى رآه قد تربد وجهه ، وانعقدت سحابة من الهم بين عينيه ، وقال: لقد قتلت قتيلين لأدينيهما^(٤). ولكن رسول الله في ضنك من المال ،

(١) بئر معونة: في طريق المصعد من المدينة إلى مكة .

(٢) العشوة: ركوب الأمر على غير بيان .

(٣) الحسك والسعدان: من النبت ذى الشوك .

(٤) أدينيهما: أدفع ديتهما .

وخصاصة من العيش، فماذا يفعل ودية القتل عاجلة لا تحتمل النسيئة ، والدم الفائر لا ينفع في تسكينه التسويف؟

ليذهب إلى بني النضير، إنهم حلفاؤه ومعاهدوه ولقد عقد معهم يوم حضر إلى المدينة عقداً ، ألا يحاربهم ولا يحاربوه، وألا يؤذيه، ولا يؤذوه وإنهم بعد ذلك حلفاء بني عامر، فليس ما يمنع أن يستعين بهم على دفع دية القتيلين. ودعا رسول الله نَفَرًا من صحابته ، وذهبوا حيث يقيم بنو النضير في أطراف المدينة.

وقال حُيَيُّ بن أخطب زعيم بني النضير: ذلك محمد مقبل في بعض صحبه، ولأمر ما قدم ، ولأمر ما وطئت قدماه هذه الديار، لننهض جميعاً للقائه، ولنتعرف ما وراء قدومه.

وقاموا إليه هاشين باشين ، وحيوه معظمين، وإن قلوبهم لتحنى على المكر والكيد ، وإن أنفاسهم لتتصاعد بالغيط والحق.

قال حُيَيُّ: خير ما جاء بك يا محمد ؟ لقيت أهلاً ، ومكاناً سهلاً ، قال الرسول: لقد قتل واحدًا من المسلمين اثنين من بني عامر حسب أنه أصاب فيهما عدوًا، وأدرك ثارًا، ولكنهما كانا معنا في حلف، ولهما ذمام، وقد جئناكم نستعين بآلكم على دية هذين القتيلين، بما بيننا من حلف وعهد.

قال حُيَيُّ بن أخطب : لك ما تريد يا محمد ، وهونًا ما أردت، استرح إلى هذا المكان، وأنظرنا قليلاً، حتى نجمع المال، ونأتى بما تريد. وجلس رسول الله ﷺ إلى جدار ، وجلس معه صحبه انتظارًا لِمَا وعدوا، أمّا هُم فسرَّعان ما ألف الشر بين جموعهم داخل الدور ، وسرَّعان ما أقبل بعضهم على بعض يتذاكرون ويتآمرون : كيف لا يفتكون بمحمد وهو بين أظهرهم، حاضر في رحابهم ؟ ها هو ذا قد مكن لهم من نفسه، وهياً لهم الفتك به ، ليس معه من ينصره، ولا يوجد حوله من يعصمه، إلّا نفرًا ضعافًا، عزلاً من السلاح. قالوا: لنن قتلتموه لنستريحنَّ، وتستريح العرب من همّ ناصب وبلاء واقع، ولئن أفلت منكم اليوم فلن تظهروا عليه أبدًا.. من منكم ينتدب لقتله ويتطوع

للتكيد به ؟ قال عمرو بن جماش: أنا بذلك زعيم، دعوني أقتله، وأشفى غيظكم منه. وانطلق يعد صخرة يرصّخه^(١) بها، وتسلق الجدار، وأعد الحجر، ولكنه نظر فإذا برسول الله انصرف، وخذل الله الكيد والمكر. وعاد رسول الله إلى أصحابه، فأعلن فيهم أن بني النضير قد غدروا ونكثوا، وأنهم قد أرادوا له قتلاً وبه شراً، ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إليه بسوء نيتهم وخبث دخیلتهم، لناله منهم شر وكيد، والمسلمون بعد ذلك في حل من عهدهم، ولا جناح عليهم في حربهم، إذ لم يعد أمان لجوارهم، ولا عهد لميثاقهم. وانتدب محمد بن سلمة، لينذرهم الخروج من ديارهم، والجللاء عن أوطانهم، وإلاً عوجلوا بالحرب، ووقع عليهم النكال.

وذهب إليهم محمد بن سلمة، ونادى فيهم: يا بني النضير، قد علمنا مكركم وغدركم، وأطلع الله رسوله على مؤامراتكم، وقد أهدرنا مواثيقكم وأيمانكم، فلا بقاء لكم بعد اليوم في ديارنا، ولا نأمنكم على رجالنا، فارجلوا عن هذه الديار سالمين بأنفسكم، موفورين في حياتكم أسوة في إخوانكم بني قينقاع.

وأدرك بنو النضير حرج موقفهم، وعاقبة فعلتهم، وكانوا يُصيخُون للقول، ويستمعون للنذير، ويتهيئون للخروج، لولا أن قيص الله لهم عبد الله بن أبي^(٢) الذي قال لهم: لا تخرجوا من دياركم، وإياكم والجللاء عن أوطانكم، وإننا سنكون في حزبكم، ومن أنصاركم، «لَنْ أَخْرِجَتْكُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»^(٣).

وعلم رسول الله كفرهم وعنادهم، فتهيأ لحربهم، ونهض لقتالهم، وحاصرهم ليالي، فلم يفتحوا له باباً، ولم يلقوا إليه يداً ولكنهم ما رأوا المسلمين يقطعون النخيل ويتهيئون للغارة

(١) يرصّخه: يرميه.

(٢) رأس المنافقين بالمدينة.

(٣) من الآية ١١ سورة الحشر.

حتى خار غودهم ، وانخذلت قواهم ، والتجئوا إلى الرسول يسألونه أن
يجليهم، ويكف عن دمائهم على ألا يأخذوا من أموالهم إلا ما حملت جملهم،
وأجابه رسول الله إلى طلبهم، واحتملوا إثم غدرهم ومكرهم، فتركوا الديار
ورحلوا عن الأوطان:

«وَمَنْ تَكْتُ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ». «وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ
لَعَذَّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»^(١).

الأحزاب

حَتَّىٰ بن أخطب زعيم بني النضير، وعظيم من عظماء اليهود ما هو إلا منبوذ طريد، منفى شريد، يقيم في أرض خبير، مهيبض الجناح، مغممد السلاح، ذليل الرأس، وقيد ما بين الجوانح^(١).

ومذً أجلاه رسول الله مع قومه عن المدينة، جزاءً وفاً لما ارتكبه من نكث في العهد، وحث في اليمين لا يزال عليه حقيقاً، مُوغر الصدر، ملتانع الفؤاد، يتربص به الدوائر، ويتوقع للمسلمين غائلة سوء، ويودّ لو انتصر الكافرون، وتخاذل المسلمون، ويودّ لو يهلك رسول الله بالمدينة فيستطيع أن يعود إلى وطنه، وأن ترحع إليه في قومه سابق زعامته، ولكنه - لعثار جدّه ولما كتبه الله له أن يموت بغيظه - لا يسقط في أذنه إلا ما يكرهه من نصرة المسلمين وهزيمة الكافرين، فيغصّ بريقه، ويتسعر في غيظه، ويتأوه من آلام الحقد والحسد كما يتأوه السليم.

وصاحب النار لا يسكت عن وثره^(٢)، والمنفي أبداً يحن إلى وطنه، ثم هو يتعلق بالثر البالي من الآمال، ويجري وراء ما يدهن له الوهم من معسول الخيال.

ولقد أصبح حبي يوماً على زعم زخرفه له الشيطان، ووهم زينته له خوادع الآمال : أن يجمع إليه نفرًا من قومه ممن جلوا عن أوطانهم، وأكل الحقد قلوبهم، ويحزّبوا^(٣) على محمد أعداءه، فهم كثر، يؤلبوا عليه القبائل جميعاً، فهم منه على وتر، ومن يدري؟ لعل محمداً تذهب دولته وتسكن حرركته، ويعود أمرهم من الزعامة والعزة كما كان.

(١) وقيد ما بين الجوانح: كسر القلب.

(٢) الوتر: إلثار.

(٣) يحزّبون: يجمعون الأحزاب والجماعات.

وجمع إليه حُيَيَّ على هذا الزعم سلام بن الحقيق^(١)، وكنانة بن الربيع، وهما من بني النضير، وهوذة بن قيس وأبا عمار، وهما من وائل، ونفراً غير هؤلاء ممن ذهب مذهبهم، وانطلقوا إلى قريش. قالت لهم قريش: يا معشر يهود، دعونا مما جئتم فيه الآن، وأخبرونا عما نسألكم عنه، إنكم أهل الكتاب الأول، وإليكم ينتهي علم ما يختلف فيه، وقد أصبحنا في أمرنا مع محمد على ريبة؟ ومن ديننا في شك. فماذا ترون؟ أديننا خير أم دينه؟ وآلهتنا حق أم إلهه؟

قالوا لهم: أنتم في شك من دينكم، وفي ريب من عقائدكم، تالله إن دينكم للحق، وإن دين محمد للخرافة. وإن آلهتكم هي التي تضر وتنفع، وتعطي وتمنع، وإن إلهه لا يدفع شرّاً، ولا يجلب خيراً، فحذار أن يدخل الشك إلى نفوسكم، أو يجري الظن إلى عقائدكم، فلا تتقاعسوا عن مناهضته، ولا تعدلوا عن محاربته، وسنجمع عليه معكم القبائل، ندعو العرب: ستَحْرَضُ غطفان، وهيب بأشجع، ندعو بني قريظة. وباتحادكم مع هؤلاء وهؤلاء، لا تدعون شأن محمد يرتفع أبداً. ثم ذهبوا إلى غطفان وحرّضوهم، فوجدوا للتحريض عندهم مرتعاً خصيباً، وذهبوا إلى أشجع فوجدوا عندهم صدراً رحيباً، ثم انطلقوا بعد ذلك إلى بني قريظة. وكانت بنو قريظة تُساكن رسول الله بالمدينة على عهد بينهم وبينه: ألا يحاربهم ولا يحاربوه. وأن يهادنهم ويهادونه، وأن يكونوا بعد ذلك على غيرهم أحلافاً. وظلّوا قائمين على العهد، حافظين للميثاق، حتى وفد عليهم حُيَيَّ بن أخطب ومعاونوه وسمع بمجيئهم كعب بن أسد القرظي - وكان رئيسهم - فقال لقومه: لم يقصدكم هؤلاء إلا لشرّ، غلّقوا أبوابكم وصموا آذانكم، فوالله ما يدفعونكم لخير أبداً.

(١) قتله عبد الله بن عتيق بأمر رسول الله ﷺ.

وغلاقوا الأبواب، وجاء حَيّ، وقال: ويحك يا كعب، افتح إليّ، فما أنا إلا ابن عمك، وعلى عقيدتك، ولقد جئتك فيما أرجو أن يكون فيه صلاحك وصلاح قومك جميعاً.

قال كعب: إنك لأشأمُ الطلعة، متهم النصيحة، مزور في الكلام. لقد عاهدتُ محمداً فلم أر منه إلا سلماً وأمناً وإلا صدقاً ووفاءً، ونحن - بني قريظة - نعيش اليوم في سلم من الأحقاد والأضغان. وفي مأمن من المكاييد والحروب.

قال حَيّ: إن محمداً - وإن عاهدك - ليس على دينك. وإن صانعك فهو على بُغض من جوارك. ويود لو أجلاك. ولقد جئتك بعزّ الدهر، بهزيمة محمد على الأيام. هذه قريش بقادتها وسادتها. ما زلتُ بها حتى جئت بها تحارب محمداً، وهي الآن بمجتمع الأسيال في طريقها إلى المدينة. وهذه غطفان، هؤلاء أشجع في طريقهم إلى المدينة. وإهم في حملتهم لصادقون، وإهم من نُصرتهم لو اتفقون.

قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، وخيبة الرجاء، وبجْهَام^(١) قد هراق^(٢) ماءه، فهو يُرعد ويُرق ليس فيه شيء، دعني من حرب محمد، فما أنا بناقض العهد، ولا حاث في الميثاق.

ولكن حَيّاً ما زال بكعب يزورُ له القدر، ويزخرِف له الفجور، حتى لانت عريكته، ونقض العهد، وخرج بقومه لقتال المسلمين.

ووفدت الأخبار على رسول الله: أن قريشاً قد جمّعت جموعها، وظهرتها غطفان، وتابعتها أشجع، وأنهم جميعاً قد خرجوا لغزو المسلمين بالمدينة.

(١) الجهام: السحاب لا ماء فيه.

(٢) هراق: لغة في أراق.

فالتقى رسول الله هذه الأخبار بحزمه وعزمه، وإيمانه وبقينه، وأمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة، وبينما المسلمون يتهيئون لصد قريش ومن حالفهم، إذ بوافد آخر يلقي إلى رسول الله: أن بني قريظة قد نكثت عهودها ونقضت وعودها، وأنهم حسبوها فرصة، وتخلوها نُهْزة، يطعنون من ورائها المسلمين.

وعلم المسلمون بما هم عليه، وبما وقعوا فيه من تحزب الأحزاب عليهم، وإحاطة العدو بهم من فوقهم، ومن أسفل منهم. فراغت أبصارهم، وهلعت قلوبهم، وعظم أمامهم الكرب، واشتد البلاء، وأخذوا يظنون بالله الظنون، أما المؤمنون فحسبوا أن هذه محنة الله، وأنها امتحان لهم، وابتلاء لمقدار جهادهم، فهم يخافون الزلزل ويخشون ضعف الاحتمال، وأما المنافقون فقد قالت طائفة منهم: لقد كان محمد يعدنا أن نأخذ كنوز كسرى وقيصر، وإن أحدنا لا يملك أن يذهب الآن لقضاء الحاجة «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا». وهمت طائفة بالفرار، وإيقاع الضعف في صفوف المسلمين، وجاءت تستأذن رسول الله كذباً ونفاقاً، وختلاً وخداعاً، يقولون:

«إِنَّ بَيُوتَنَا عَوْرَةٌ»^(١) وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا» ووقف رسول الله بين أعداء من الأمام، وأعداء من الظهر، وأعداء من الصفوف.

ولو كان هما واحداً لَأَتَقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُمُ وِثَانٌ وَثَالِثٌ

وفي هذا الليل الحالك من الفرق والفرع، وفي ذلك العثير^(٢) المنعقد من الخوف والهلع، ساق الله إلى المسلمين نعيم بن مسعود - وهو رجل من رجال غطفان - وقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمربي بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة.

(١) العورة في الثغر والحرب: أمر يخاف منه.

(٢) العثير: الغبار.

وذهب نعيم أعزل من سلاحه، مفردًا عن قومه، ولكن بما وهبه الله من قس الإيمان، وما نفخ فيه من روح اليقين، كان يحمل عزيمة أمضى من السيف، وهمة أثبت من الطود. ذهب لا يحمل سيفًا، ولا يتكعب قوسًا، ولكنه يرجو - بما رخص له رسول الله من خداع، وبما أباح له من نسج خيوط الدهاء - أن ينال من الأعداء ما لا ينال بالسيوف، ويصيب فيهم ما لا تصيبه السهام.

ذهب إلى بني قريظة - وكان نديماً لهم في الجاهلية - وقال لهم: يا بني قريظة، لقد عرفتم ودّي إياكم، وحبّي لخاصتكم وعامتكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتّهم. قال: إن قريشًا وغطفان ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم، ولا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره. وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتوهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن رأوها نُهْزَةً^(١) أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلّوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به إذا خلا بكم.

قالوا: وما الرأي، وقد عاهدناهم على أن نحارب معهم، ونسلك في عداوة محمد سبيلهم؟ قال: أن تأخذوا رهناً من أشrafهم، يكونون بأيديكم حتى تُناجزوه، وبذلك تكفلون صدقهم ونصرهم.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

وتركهم نعيم بعد أن بث خديعته فيهم، وذهب إلى قريش فقال لهم: لقد علمتم ودي لكم وبُغضى محمدًا.

(١) نهزة: فرصة.

ولقد بلغني أمرٌ قد رأيت حقاً أن أبلغكم إياه، نصحاً لكم، وخشية عليكم، فاكنموه عني، إن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمد، ولقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثوا إليكم يلتمسون رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم أحداً.

ثم تركهم وذهب إلى غطفان، وحدثهم بمثل ما حدث قريشاً، واتخذوا له كما اتخذت قريش. وترك نعيم الجمع ينظر ما يكون.

وفي ليلة السبت من شوال أوفدت قريش وغطفان عكرمة بن أبي جهل في نفر منهم إلى بني قريظة يستنفروهم للقتال، قال عكرمة لروّسائهم: إنا لسنا بدارٍ مقام، قد هلك الخلف والحافر، فاغذوا للقتال، حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه، فقالوا له: إن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه شيئاً، ولو فعلنا لعاد الخزي والخذلان علينا، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن خرّستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تتشمروا^(١) لبلادكم، وتتركونا ومحمداً، ولا طاقة لنا بقتاله.

ورجعوا إلى قريش وغطفان، وحدثوهم بما قالت بنو قريظة، فقالوا: والله إن ما حدثكم به نعيم بن مسعود لحق وعادت الرسل إلى بني قريظة، وقالوا لهم: والله لا ندفع إليكم من رجالنا أحداً، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا.

(١) تشمر للأمر: قماً وجد.

فَقَالَتْ بَنُو قَرِيظَةَ، حِينَ انْتَهَتْ إِلَيْهَا الرِّسْلُ بِهَذَا: وَاللَّهِ، إِنْ مَا ذَكَرَهُ نَعِيمٌ
لِحَقٍّ، وَحِينَئِذٍ وَقَعَ التَّخَاذُلُ فِي صُفُوفِ الْأَحْزَابِ، وَدَبَّ الرُّعْبُ فِي قُلُوبِهِمْ.
أَمَّا قَرِيشٌ فَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ فِي لَيْلٍ شَاتٍ، فَكَفَّتْ قُدُورُهُمْ،
وَطَرَحَتْ آيَتُهُمْ، وَزَادَتْ فِي تَخَاذُلِهِمْ، وَقَفَلُوا إِلَى مَكَّةَ رَاجِعِينَ مَذْعُورِينَ: «وَرَدَّ
اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ
اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا».

وَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الَّذِينَ ظَاهَرُوا قَرِيشًا وَغَطَفَانٍ مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ، فَوَجَدَهُمْ
أَيْضًا قَدْ قَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَأَوْقَعَ عَلَيْهِمُ الْفَرْعَ، فَانْتَقَمَ مِنْهُمْ، وَأَنْزَلَهُمْ
مِنْ حَصْنِهِمْ وَصِيَاصِيهِمْ^(١) ثُمَّ عَاقَبَ رَجُلَهُمْ بِالْقَتْلِ وَنَسَاءَهُمْ بِالسَّبْيِ وَالْأَسْرِ،
وَأَوْرَثَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

(١) وصياصيهم: الحصون.

أصحاب الفيل

ملك ذو نواس بلاد اليمن، وهي تلك البلاد التي تكثر خيراتها، وتفيض بالأرزاق أرجاؤها، ولما قبض على ناصية الملك فيها نقم^(١) من سلفه لانغماسه في اللذات، وجنوحه إلى دواعي الشهوات، وأنكر عليه ميله إلى الإثم، وإغراقه في الفحش، فأنبأ ذلك عن نفس تطمح إلى الزهد في الدنيا وتميل إلى النأى عن المآثم والفجور، وتحب البعد عن مباحج الحياة وزخرفها، وترغب في إصلاح النفوس، وبث روح الدين في الرعية. وقد كان منه بعد ذلك ما صدق في هذا الحديث، وأكد هذا الظن.

مرّ ذو نواس يوماً يثرب مجتازاً، وقد كان أهلها ممن استجابوا لداعي اليهودية، وأشربت نفوسهم حبها، وتأصلت في قلوبهم مبادئها، واتخذها دعاة اليهود منبراً لدعوتهم، ومعتقلاً لديانتهم، وانتشرت فيها معابدهم، وصارت وكراً لمبشريهم، وعشاً لدعائهم، وسرعان ما هرعوا إليه يلقون إليه شيئاً من مبادئ اليهودية، ويسلطون له ما عرفوا من ميزات وفضائلها، علمهم يجدون منه عضداً لهم ومساعداً على نشر دينهم فصادف هذا الدين هوى في نفسه، ورغبة كانت كامنة في فؤاده. فأحبه وجاهر بالدعوة إليه، ونصب نفسه داعياً له ونصيراً، ثم دعا العرب جميعاً إلى مشايعته فيه، والدخول في زمرة، واشتد في عقاب من خالفه، فأطاعه كثير من العرب، بعضهم يخاف بطشه وقوته، وقليل منهم انخرط في سلك هذا الدين بعد أن رآه يصلح نفسه، ويوافق هواه، وشاع أمر ذي نواس وعظمت شوكته، وخاف الناس بأسه، فدخلوا في هذا الدين أفواجا.

(١) نقم منه: عابه وكرهه أشد الكراهة لسوء فعله.

ولكن أهل نجران قد تفتحت قلوبهم لدين جديد، وهو الدين المسيحي، فدوه بأنفسهم، واختلط بقلوبهم. فكانوا خارجين على دولته، ومتحدين لعقيدته.

ووفد إلى ذي نواس من يثيرة عليهم، وبغيره هم، عله يهدم ذلك الصرح الذي امتنع عليه دخوله، ويفتح هذا الحصن الذي أعياه ولوجه ويمحو هذا الدين الذي يوشك أن يمحى به ظل اليهودية، ويعفو رسمها، وينتهي تاريخها.

فاستجاب لهذا الدعاء، واندفع وراء هذه الغواية، وخرج إلى أهل نجران يدعوهم إلى نبذ دينهم، ويأمرهم بالأخذ بدينه، والدخول في زمرة أشياعه وأتباعه، فأبوا الانحراف عن دينهم، وأصروا على امتناعهم، ولم ترهبهم عزته، أو تلن قناتهم صولته، فعز عليه أن يجد له مناوئاً، ولدينه مخالفاً. فحفر لهم حفرة أضرم النار فيها، ثم أذن فيهم مؤذنه: إن هذه جزاء لمن لم يدخل في دينه، وهي عقاب لمن يصر على مخالفته، فلم يشهم أوارها، أو تزغ أبصارهم من وهجها، بل استمسكوا بدينهم، وتشبثوا بعقيدتهم. فرماهم في الأخدود، وصير أجسادهم وقوداً للنار، جزاء عنادهم ومخالفتهم.

فر رجل من هؤلاء الذين اصطلوا بتلك النار، فمضى حتى أتى قيصر ملك الروم، فاستنصره على ذي نواس وجنوده، وأخبره بما كان منهم، فقال له: بعدت بلادك منا، ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة، فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك.

كتب إليه يأمره بنصره، والطلب بثاره، فقدم بلاد الحبشة بكتاب قيصر، وشكا إلى النجاشي ما حل بقومه من الهلاك والدمار، وأسمعه أنين القتلى، وغوث الشهداء، ونعى إليه رجال المسيحية والحامين ذمارها.

وعز على النجاشي أن يخبر ضوء الدين المسيحي في هذا البلد، وتنطفئ شعلته في ذلك المعقل، فصمم على الثأر من ذلك الذي أراق دماءهم، واستباح أموالهم، وأهلك زروعهم، وجهاز جيشاً كثر عدده، وتوافرت عدته، وبعث به إلى اليمن يغزو ملكها، وينتقم من أهلها.

ولما التقى الجمعان، واشتبك الخصمان، تتابعت الهزائم على ذي نواس وأصحابه، وأخيراً أسلمت اليمن إلى النجاشي قيادها، وألقت إليه بزمامها، وبذلك أصبحت بلاد اليمن ولاية تابعة للحبشة.

ثم صار أبرهة والياً على الحبشة، فأراد أن يعيد إلى الدين المسيحي شأنه، ويرجع إليه قوته، ولما رأى الناس جميعاً يقصدون مكة، يحجون بيتها الحرام وكعبتها المقدسة، فكر في أن يغتصب ذلك الإكليل الذي ازينت به قريش، وأراد أن يصرف الناس عن مكة وبيتها، ويجذب قلوب الناس نحو بلاده، ويستميلهم إلى دينه، فبنى كنيسة بصنعاء^(١)، وزينها بما يبهر الأبصار، ويأخذ بالألباب. وعنى بزخرفتها غاية العناية، وجلب لها من فاخر الأثاث وثمين الرياش ما خيل إليه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه، ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق. ورأى أهل اليمن أنفسهم يدعون البيت الذي بناه، وينصرفون إلى مكة، واشتد غيظ العرب واشتعلت نيران الحقد في نفوسهم، إذ رأوا لبيتهم مناوئاً، ولموئل أصنامهم عدوًّا، فعمدوا إلى تحقير بيته، والخط من قدره، فأحدث فيه رجل من كنانة ليلاً.

ولما علم أبرهة بذلك اشتد غضبه، وغلى مرجل غيظه، وأقسم ليهدم من الكعبة، وليزيلن بيت إبراهيم وإسماعيل وليثأرن لبيته من العرب، حتى ينصرفوا عن

(١) عاصمة اليمن.

كعبتهم، ويولوا وجوههم نحو بيته. هتياً للحرب، وقاد الجحافل تتقدمها الأفيال، وسار نحو مكة ليهدم بيت العرب، الذي هو موئل حبيبهم ومعقد آمالهم، ومكان اجتماعهم.

ولما سمع العرب بذلك النبأ عز عليهم أن يقدم رجل حبشي على هدم بيت حجبهم ومقام آلهتهم، فهب رجل من أشراف اليمن يدعى ذا نفر، فاستنفر قومه، واستنار حميتهم، ودعا أهل وطنه وغيرهم من العرب لمقاتلة أبرهة، وصدده عن عزمه، ولكنه لم يستطع مقاومته، ولم يصمد للقائه، فهزم ومن التف حوله، وأخذ أسيراً.

ولكن هل كان هذا مما يثنى غيره عن مقاتلة أبرهة، ويقعد العرب عن محاربتة، لا، فإن كثيراً من العرب قد دفعتهم الغيرة على بيتهم، والحمية لنصرة دينهم إلى مناوأة أبرهة ومقاتلته، ولكنهم جميعاً رجعوا بالهزيمة، وبأءوا بالخيبة. سار أبرهة نحو مكة بعد أن أزيئت رأسه بتاج النصر، وتحلى صدره بوسام الفوز، وخضعت له قبائل العرب، وسعت إليه وفود القبائل، تقدم له الطاعة، وتظهر له الخضوع، ويسعى أمام جيوشه منهم من يدلّه على الطريق، ويرشده إلى آمن السبل.

خرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المَقَمَس^(١)، ولما استقر به وبجيشه المقام بعث أبرهة رجلاً من جنده، فساق إليه أموال أهل قحاة من قريش وغيرهم، واستاق من بينها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم، وهو يومئذ صاحب السقاية^(٢)،

(١) موضع بطريق الطائف، فيه قبر أبي رغال دليل أبرهة.

(٢) في الحديث: «كل مائرة من مآثر الجاهلية تحت قدمي إلا سقاية الحاج وسدانة البيت، وسقاية الحاج: هي ما كانت قريش تسقيه الحاج من الزبيب المنبوذ في الماء.

وشريف قومه، وسيد عشيرته. فهت قريش ومن معهم من أهل مكة بقتال أبرهة، ولكنهم رأوا أن لا طاقة لهم به، فاستكانوا لما نالهم من أبرهة، واحتملوا الضيم الذي لحقهم منه.

وبينما هم في هذا الضيق الذي شملهم، وذلك الحزن الذي تخالج في نفوسهم، وفد إليهم رجل من رجال أبرهة، يسأل عن سيد مكة، وصاحب السلطان فيها. فأتى به إلى عبد المطلب بن هاشم، فلما مثل بين يديه قال له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم فإن هو لم يرد حربي فأتني به.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا به طاقة. قال الرسول: فانطلق معي إليه، فإنه أمرني أن آتيه بك، فسار معه عبد المطلب ومعه بعض أبنائه وغيرهم من كبراء مكة وأصحاب الرأي فيها، حتى وصلوا إلى معسكره.

ولما دخل عبد المطلب عليه قيل: إنه سيد قريش، الذي يطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبل، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً، تعلوه الهيبة ويحفه الوقار، فلما رآه أبرهة أكرم وفادته، وأجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فجلس على بساطه، وأجلسه معه إلى جنبه، ثم أقبل عليه يستفسره عن طلبته، فطلب إليه رد ما اغتصبت جيوشه من إبله. فقال أبرهة: قد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم زهدت فيك حين كلمتي، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك. قد جئت لأهدمه، لا تكلمني فيه؟ قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه. قال أبرهة: ما كان ليمتع مني. قال عبد المطلب: أنت وذاك.

ثم أسرع أبرهة إلى إرضائه، ورد عليه أذواده^(١)، وعرض وفد مكة على أبرهة أن يرجع عن هدم الكعبة، على أن ينزلوا له عن ثلث ثروة قمامة، ولكنه أبى الإصغاء إلى أي حديث في هذا الشأن، ورفض أن يقبل أي فدية فأنصرفوا وقد أهمهم الأمر، وأفرعهم الخطب، وعادوا إلى مكة يجرون أذيال الحبيبة. ونصح لهم عبد المطلب أن يخرجوا إلى شعاب الجبل، إبقاءً على نفوسهم وحفظاً لأرواحهم، وتخوفاً عليهم من معرة الهزيمة، وكانت ليلة ليلاء، تلك التي فكر فيها القوم في هجر بلدهم، وفيما هو نازل بها وهم، فاشتد الهرج والمرج، وتعالى الضجيج، والعيول، وكنت ترى الناس وقد اكتظت بهم شعوف^(٢) الجبل وضائق بهم شوارع المدينة، وكنت تسمع رغاء الإبل، وثغاء الغنم، وعيول النساء، وبكاء الأطفال.

وخرج عبد المطلب من بين تلك الجماعات النازحة، وذهب ومعه نفر من قريش إلى البيت وأمسك بحلقة باب الكعبة، وجعل يدعو ويدعون، يستنصرون الله على أبرهة وجنده، ويضرعون إليه أن يمنع بيته، ويحمي كعبته، ثم انطلق ومن معه من قريش، حتى صعدوا في الجبل، ومكثوا ينتظرون ما يفعل هذا الطاغية بمكة إذا دخلها.

وخلت مكة منهم، وآن لأبرهة أن يوجه جيشه ليهدم البيت، فتهياً لدخول مكة، وجهاز فيله، وعى^(٣) جيشه، ولكن الله أرسل عليهم أسراباً من الطير، تحمل في مناقيرها حجارة رمتهم بها، فهشمت رؤوسهم، ومزقت لحومهم، وجعلتهم

(١) الذود من الإبل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، وجمعه أذواد.

(٢) شعفة كل شيء: أعلاه، وشعفة الجبل: رأسه، والجمع شعوف.

(٣) عى الجيش: هياه للحرب.

جثثاً هامدة، وأشلاء ممزقة. وأصاب أبرهة شيء مما أصاب جنده، فأخذه الروح،
ودخله الفرع فأمر من بقي معه بالعودة إلى اليمن بعد أن فنى عدد عظيم من
جنده، وتشتت شمله، وتفرق جمعه. وبلغ صنعاء وقد وهنت قوته، ثم لحق بمن مات
من جيشه.

وبذلك حفظ الله لقريش بيتها، وأبقى لها زعامتها، وزاد هذا الحادث العجيب
في مكانة مكة، وجعل أهلها يحتفظون بتلك المكانة الرفيعة، ويتربصون لكل من
يحاول الانتقاص منها أو الاعتداء عليها.

وقد كان ذلك إرهاباً لنبوة محمد، الذي تفرع من هذه الأرومة الطيبة، ونشأ
في ظل هذا البيت العتيق، وعد هذا الحادث من أعجب الحوادث، لأن الله رد
أصحاب الفيل على أعقابهم خاسرين، فأرخ العرب بعامه^(١)، وتحدثوا بوقوعه،
وصار ذكرى لهم، وحديث أبنائهم.

(١) كان ذلك سنة ٥٧٠ م.

الإنسان القدوة في ذكرى مولده

عندما بعث «محمد» الإنسان حاملاً معه رسالة «الرحمة» للبشر جميعاً، لم تكن هذه المبادئ والقواعد التي تضمنتها هذه الرسالة الإلهية.. لم تكن لفترة من الزمن أو لمرحلة من المراحل. بل كانت لكل الأزمنة ولكل المراحل. ذلك أن رحمة الخالق إنما هي رحمة ممتدة مع الزمان إلى أن يلقاه البشر جميعاً يوم الحشر، يوم الحساب.

وعلى مدى سنوات طويلة من الكفاح المرير، والمواجهات القاسية مع المشركين واليهود وقف الرسول الزعيم صلباً أمام كل ما توقع من تحديات، غير متهاون مع نفسه أو مع أهله أو مع صحابته أو مع أتباعه. فهو قد حمل رسالته وحمل أمانته. واختير من بين البشر جميعاً ليلفهم الرسالة حرفاً حرفاً. وكلمة كلمة. ويضع الأمانة أمام الذين تاهوا في معالم الجهل والجاهلية داعياً إياهم إلى الهداية، وإلى الصراط المستقيم ساعياً إلى غرس الرسالة في قلوبهم ليؤمنوا بها عن اقتناع. لا عن نفاق. ذلك أن الله قد لعن المنافقين ووضعهم في مصاف أعداء الرسول وأعداء الرحمة.

ولم يكن أمام الرسول إلا طريق واحد لتحقيق هذا الإقناع والوصول برسالته إلى أعماق القلوب لترسخ فيها وتمتد مع الأجيال إلى أن نلقى الله. هذا الطريق هو أن يكون القدوة. وأن يكون المثل الذي يحتذى في الشدائد والملمات والتحديات فلا سبيل لإقناع الناس بالاحتمال وتقديم التضحية والكفاح من أجل

رسالة ما إلا أن يكون أمامهم وعلى رأسهم من يقدم لهم القدوة. وأن يقودهم بها إلى طريق التضحية. إلى طريق الرحمة. إلى طريق المحبة. إلى هدف الأمان والاستقرار. وفي أول مرة وقفت فيها أمام قبر الرسول الكريم زائراً، انتابني شعور غريب. شعور بالرهبة والإحساس بأن وقفي هذه إنما هي أمام إنسان لم يجد الزمان بمثله. إنسان جعله الله قدوة للبشر. وأمره بأن يحدد لهم على مدى الأعوام التي حمل فيها الأمانة الخط الفاصل بين الخير والشر. بين الاقتراب من الله والابتعاد عنه. بين النجاح والفشل. وهو في سبيل الوصول إلى رسم هذا الخط الفاصل تحمل وصبر. وجاهد وانتصر. وقاوم وتغلب على كل إغراء. وقدم القدوة التي جعلت الناس يؤمنون برسالته. ويصدقون دعوته. ويندفعون إلى الالتفاف حوله. ويتسابقون إلى الاستشهاد من غير تطلع إلى مغنم أو مطمع. ذلك لأن الرسول أقنعهم - بالقدوة - بأن الحياة زائلة وأن ما تؤديه لأنفسنا ولديننا خلال فترتها - قصيرة كانت أو طويلة - إنما هي من أجل حياة أبقي. ونعيم دائم مقيم عند الخالق بقدر ما تؤديه في الحياة من عمل طيب.

فالرسول - في رسالته - قد ربط بين الحياة والآخرة. وأن الأولى هي السبيل إلى الثانية بما فيها من ثواب وعذاب. ثم ترك للبشر أن يختاروا. وأن يقرروا لأنفسهم ما يشاءون. تذكرت ذلك كله في أول زيارة للرسول في قبره. وعندما عدت إليه في زيارات أخرى متتالية كنت أحس بأحاسيس أخرى. أحاسيس اختلطت بالخجل والألم والقلق والتمزق. لا لأني ابتعدت عن الإيمان برسالته وإنما لأني أرى أماننا - أمام البشر جميعاً - الطريق إلى النور. ومع هذا فإننا نأبي إلا أن نعيش في الظلام. وأرى أماننا - أمام كل البشر - طريق السلام ومع هذا نأبي إلا

اختيار السبل المؤدية إلى التطاحن والكراهية والحقد. وأرى أماننا - أمام كل
البشر - تراجعا حول منافع الدنيا ونغمس فيها بالانحراف والفساد بينما الرسول
الكريم قد تحمل في سبيل إقناعنا بالابتعاد عن ذلك كله الصعاب والويلات، ثم
نسينا ما قدم لنا وتحمل في سبيلنا. وأرى أماننا كذلك - أمام البشر جميعا -
التشريعات التي توفر لنا كل أمان واطمئنان، ومع هذا فإننا نصر على الابتعاد
عنها لنبحث عن تشريعات جديدة وسنن مبتكرة قادت وتقود البشرية إلى
الفوضى والهلاك والأنانية.

وساءلت نفسي في آخر مرة زرت فيها قبر الرسول - وهذه الأحاسيس
تضغط على صدري وقلبي ولساني - ساءلت نفسي: لماذا؟ وكيف؟ وما هو
السر؟

ولم أتعب في الحصول على إجابات لكل هذه الأسئلة، ولم أجهد نفسي في
تصوير ما وصلنا إليه في كل الأزمنة...

فإن الشعوب قد فقدت القدوة وضلت الطريق وتباعدت عن نور الإيمان،
وعدت أسأل نفسي سؤالا أخيرا: وكيف الخلاص من هذا كله؟ ووجدت
الجواب في دعاء ارتفع من شخص ركع إلى جانبي وكان يردد فيه: اللهم خصني
من المعينين لي يزبنون لي أمر الدنيا ولا يزبنون لي أمر الآخرة. وقد صدق الرجل.

عمرو بن عبید والخليفة المنصور

رَوَى إِسْحَاقُ بْنُ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيُّ قَالَ: إِنِّي لَعَلَى بَابِ الْمَنْصُورِ يَوْمًا وَإِلَى جَنبِي عُمَارَةُ بْنُ حَمْرَةَ إِذْ طَلَعَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ عَلَى حِمَارِهِ، فَزَلَّ عَنْ حِمَارِهِ، ثُمَّ دَفَعَ الْبَسَاطَ بِرِجْلِهِ وَجَلَسَ دُونَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ عُمَارَةُ فَقَالَ: لَا تَزَالُ بَصُرْتَكَ تَرْمِينَا بِأَحَقِّ، فَمَا فَصَلَ كَلَامُهُ مِنْ فِيهِ حَتَّى خَرَجَ الرَّبِيعُ وَهُوَ يَنَادِي: أَبُو عَثْمَانَ عَمْرُو بْنُ عَبِيدٍ.

قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا دَلَّ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى أُرْشِدَ إِلَيْهِ فَأَتَكَاهُ^(١) يَدُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جُعِلَتْ فِدَاكَ، فَمَرَّ مَتَوَكِّنًا عَلَيْهِ، فَالْتَفَتُ إِلَى عُمَارَةَ فَقُلْتُ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي اسْتَحْمَقْتَهُ قَدْ أُدْخِلَ وَتُرَكْنَا، فَقَالَ: كَثِيرًا مَا يَكُونُ ذَلِكَ، فَأَطَالَ اللَّبْثَ، ثُمَّ خَرَجَ الرَّبِيعُ وَهُوَ مَتَوَكِّنٌ عَلَيْهِ وَالرَّبِيعُ يَقُولُ: يَا غَلَامَ، هَاتِ حِمَارَ أَبِي عَثْمَانَ، فَمَا بَرَحَ حَتَّى أَتَى بِالْحِمَارِ فَأَقْرَهُ عَلَى سَرَجِهِ. وَضَمَّ إِلَيْهِ نَشْرَ^(٢) ثَوْبِهِ وَاسْتَوْدَعَهُ اللَّهَ.

فَأَقْبَلَ عُمَارَةَ عَلَى الرَّبِيعِ فَقَالَ: لَقَدْ فَعَلْتُمْ الْيَوْمَ بِهَذَا الرَّجُلِ مَا لَوْ فَعَلْتُمُوهُ بِوَلِيِّ عَهْدِكُمْ لَقَضَيْتُمْ ذِمَامَهُ^(٣). قَالَ: فَمَا غَابَ عَنْكَ عَمَّا فَعِلَ بِهِ أَكْثَرُ وَأَعْجَبَ. قَالَ عُمَارَةُ: فَإِنْ اتَّسَعَ الْحَدِيثُ فَحَدِّثْنَا.

فَقَالَ الرَّبِيعُ: مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعَ الْخَلِيفَةُ بِمَكَانِهِ فَمَا أَمْهَلَ حَتَّى أَمَرَ بِمَجْلِسِ فُقَرَشَ لُبُودًا^(٤) ثُمَّ انْتَقَلَ إِلَيْهِ وَالْمَهْدِيُّ مَعَهُ عَلَيْهِ سَوَادُهُ^(٥) وَسَيْفُهُ ثُمَّ أَذِنَ لَهُ.

(١) أَتَكَاهُ يَدُهُ: جَعَلَهُ يَمْكِي عَلَيْهِ.

(٢) نَشْرُ ثَوْبِهِ: مَا انْتَشَرَ مِنْهُ.

(٣) ذِمَامُهُ: حَقُّهُ.

(٤) اللَّبُودُ: جَمْعُ لَبْدٍ وَهُوَ الْبَسَاطُ مِنَ الصُّوفِ.

(٥) سَوَادُهُ: لَيَابُهُ السُّودَ، وَكَانَ اللَّوْنُ الْأَسْوَدُ شَعَارَ الْعَبَّاسِيِّينَ.

فلما دَخَلَ عليه سَلَمٌ بِالْخِلاَفَةِ، فَرَدَّ عليه وما زالَ يُدنيه حتى أَتَكَاهُ فَخَذَهُ وَتَحْفَى بِهِ^(١) ثُمَّ سَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ عِيَالِهِ يَسْمِيهِمْ رَجُلًا وَرَجُلًا وَامْرَأَةً وَامْرَأَةً ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا عَثْمَانَ عَظْمَانِي. فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ «وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ»^(٢) وَمَرَّ فِيهَا إِلَى آخِرِهَا، وَقَالَ: إِنَّ رَبَّنَا يَا أَبَا جَعْفَرٍ لِبِالْمِرْصَادِ. قَالَ: فَبَكَى الْمَنْصُورُ بُكَاءً شَدِيدًا، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تِلْكَ الْآيَاتِ إِلَى تِلْكَ السَّاعَةِ.

ثُمَّ قَالَ: زِدْنِي. فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا فَاشْتَرِ نَفْسَكَ مِنْهُ بِبَعْضِهَا، وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي صَارَ إِلَيْكَ إِنَّمَا كَانَ فِي يَدِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ ثُمَّ أَفْضَى إِلَيْكَ وَكَذَلِكَ يَخْرُجُ مِنْكَ إِلَى هُوَ مَنْ بَعْدَكَ، وَإِنِّي أَحْذَرُكَ لَيْلَةً تَتَمَخَّضُ صَبِيحَتُهَا عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَبَكَى أَشَدَّ مِنْ بَكَائِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى رَجَفَ جَنْبَاهُ^(٣). فَقَالَ لَهُ سَلِيمَانُ ابْنُ مُجَالِدٍ: رَفَقًا بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ أَتَعَبْتَهُ مِنْذُ الْيَوْمِ.

فَرَفَعَ عَمْرُو رَأْسَهُ وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: أَوَّلًا تَعْرِفُهُ يَا أَبَا عَثْمَانَ؟ قَالَ: لَا، وَلَا أَبَالِي إِلَّا أَعْرِفُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَذَا أَخُوكَ سَلِيمَانُ بْنُ مُجَالِدٍ، فَقَالَ: هَذَا أَخُو الشَّيْطَانِ، وَتِلْكَ يَابَنُ مُجَالِدٍ، خَزَنْتَ نَصِيحَتَكَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَرَدْتَ أَنْ تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ أَرَادَ نَصِيحَتَهُ. يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ اتَّخَذُوكَ سَلَمًا لَشَهْوَاهُمْ، فَأَنْتَ كَالْآخِذِ بِالْقَرْيَتَيْنِ، وَغَيْرُكَ يَحْلُبُ، فَاتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّكَ مَيِّتٌ وَحَدُوكَ، وَمَحَاسِبٌ وَحَدُوكَ، وَمَبْعُوثٌ وَحَدُوكَ، وَلَنْ يُغْنِيَ عَنْكَ هَؤُلَاءِ مِنْ رَبِّكَ شَيْئًا.

فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ: يَا أَبَا عَثْمَانَ أَعْنَيْ بِأَصْحَابِكَ أَسْتَعْنِ بِهِمْ فَقَالَ لَهُ: اتَّبِعِ الْحَقَّ

(١) تحفى به: بالغ في إكرامه.

(٢) يسر: أصله يسرى، أي يمضي.

(٣) رجف جنباه: تحركا تحركا شديدا.

يَتَّبَعُكَ أَهْلُهُ. قَالَ: بَلِّغْنِي أَنَّ مُحَمَّدًا بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ كَتَبَ إِلَيْكَ كِتَابًا. قَالَ: قَدْ جَاءَنِي كِتَابٌ يُشَبِّهُهُ أَنْ يَكُونَ كِتَابَهُ. قَالَ: فِيمَاذَا أَجَبْتَهُ؟ قَالَ: أَوْلَسْتُ قَدْ عَرَفْتَ رَأْيِي فِي السَّيْفِ أَيَّامَ كُنْتُ تَخْتَلِفُ إِلَيْنَا وَأَنِّي لَا أَرَاهُ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَلَكِنْ تَحْلِفُ لِي لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي. قَالَ: لَنْ كَذِبْتُكَ تَقِيَّةً^(١) لِأَحْلِفَنَّ لَكَ تَقِيَّةً. قَالَ لَهُ: أَنْتَ الصَّادِقُ الْبَارُ، وَقَدْ أَمَرْتُكَ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ تَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى زَمَانِكَ. فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا. فَقَالَ الْمَنْصُورُ: وَاللَّهِ لَتَأْخُذْكِهَا. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخْذُهَا. فَقَالَ لَهُ الْمَهْدِيُّ: يَحْلِفُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَحْلِفُ. فَتَرَكَ الْمَهْدِيُّ وَأَقْبَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ، فَقَالَ: مِنْ هَذَا الْفَقِي؟ فَقَالَ: هَذَا ابْنِي مُحَمَّدٌ، وَهُوَ الْمَهْدِيُّ، وَهُوَ وَلِيُّ الْعَهْدِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتَهُ اسْمًا مَا اسْتَحَقَّهِ بِعَمَلٍ، وَأَلْبَسْتَهُ لَبُوسًا مَا هُوَ مِنْ لَبُوسِ الْأَبْرَارِ، وَلَقَدْ مَهَّدْتَ لَهُ أَمْرًا أَمْتَعُ مَا يَكُونُ بِهِ أَشْغَلُ مَا تَكُونُ عَنْهُ.

قَالَ الْمَنْصُورُ: يَا أَبَا عَثْمَانَ، هَلْ مِنْ حَاجَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: أَلَا تَبْعَثُ إِلَيَّ حَقِّي آتِيكَ. قَالَ: إِذَا لَا نَلْتَقِي. قَالَ: عَنْ حَاجَتِي سَأَلْتَنِي، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَفَضَّ فَلَمَّا وَلَّى أَتْبَعَهُ بِصَرِهِ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

كُلُّكُمْ طَالِبٌ ضَيْدٌ كُلُّكُمْ يَمْشِي^(٢) رَوَيْدٌ

غَيْرَ عَمْرٍو بْنِ عُبَيْدٍ

(١) كَذِبْتُكَ تَقِيَّةً: كَذِبْتُكَ اتِّقَاءَ سَخَطِكَ.

(٢) يَمْشِي رَوَيْدًا: يَمْشِي فِي تَوَدُّةٍ وَقَهْلٍ.

عمر بن عبد العزيز

عَهْدَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْخِلاَفَةِ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - الرَّجُلِ الصَّالِحِ - كَمَا نَعْتُهُ فِي عَهْدِهِ وَوَصِيَّتِهِ، فَاسْتَفْتَحَ وِلَايَتَهُ بِرَدِّ الْمَظَالِمِ وَقَالَ: «لَا أَبْدَأُ بِأَوَّلَى مِنْ نَفْسِي» فَنَظَرَ إِلَى مَا فِي يَدِهِ مِنْ أَرْضٍ أَوْ مَتَاعٍ فَخَرَجَ مِنْهَا، وَبَاعَ أَمْوَالَ سُلَيْمَانَ وَرِبَاعَهُ^(١) وَكُسُوتَهُ وَجَمَعَ مَا كَانَ يَمْلِكُهُ، وَدَخَلَ عَلَى زَوْجِهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَأَخَذَ مِنْهَا الثَّوبَ النَّفِيسَ الَّذِي كَانَ قَدْ عَمَلَهُ لَهَا أَبُوهَا، مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ مَنْظُومًا بِالْدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ، وَقَالَ لَهَا: «إِنْ اخْتَرْتَنِي، فَإِنِّي أَخَذَ الثَّوبَ، فَأَجْعَلُهُ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنْ اخْتَرْتَ الثَّوبَ، فَلَسْتُ لَكَ بِصَاحِبٍ». فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ فِرَاقِكَ، بَلْ أَخْتَارُكَ عَلَيْهِ وَعَلَى أَضْعَافِهِ لَوْ كَانَ لِي، لَا حَاجَةَ لِي بِالثَّوبِ فَخُذْهُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ. وَدَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ لَهْ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ قَدْ تَقَطَّعَ، فَقَالَ: «رَقَعَ قَمِيصُكَ يَا بُنَيَّ، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ بِأَحْوَجَ إِلَيْهِ مِنْكَ الْيَوْمَ».

هَذِهِ النَّزَاهَةُ وَالصِّيَانَةُ، وَالْوَرَعُ وَالزُّهْدُ، اسْتَفْتَحَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وِلَايَتَهُ أَمْرَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ هِجْرِيَّةً.

وَلَدَ بِمَحْلُوانِ مِصْرَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْتِينَ لِلْهِجْرَةِ، وَمَا إِنْ وَلِيَ الْخِلاَفَةَ حَتَّى أَدْرَكَ أَعْبَاءَهَا، فَقَالَ: «يَا لَيْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْخِلاَفَةِ بُعْدَ الْمَشْرِقِينَ» وَقَالَ: «إِنِّي نَظَرْتُ فَوَجَدْتُني قَدْ وَلَّيْتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا، أَسْوَدَهَا وَأَحْمَرَهَا، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْفَقِيرَ الْجَائِعَ، وَالْمَرِيضَ الضَّائِعَ، وَالْعَانِي^(٢) الْمَجْهُودَ، وَالْمَظْلُومَ الْمَقْهُورَ، وَالْغَرِيبَ

(١) الرِّبَاعُ: جَمْعُ رِبْعٍ، وَهُوَ الْبَيْتُ.

(٢) الْعَانِي: الْأَسِيرُ.

الأسير، والشيخ الكبير، وذا المال القليل والعيال الكثير، وهم في أقطار الأرض، وأطراف البلاد، وعلمت أن الله سألني عنهم، وأن رسول الله حجيجي^(١) فيهم فَحَفْتُ أَلَا يَثْبُتَ لِي عِنْدَ اللَّهِ عُذْرٌ، وَلَا تَقُومَ لِي مَعَ رَسُولِهِ حُجَّةٌ، فَرَحِمْتُ وَاللَّهِ نَفْسِي رَحْمَةً دَمَعَتْ لَهَا عَيْنِي، وَرَجَعَ لَهَا قَلْبِي، وَكَلِمَا اِزْدَدْتُ لَهَا ذِكْرًا، اِزْدَدْتُ مِنْهَا خَوْفًا وَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ فِي مَشْرِقٍ وَلَا مَغْرِبٍ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ قَبْلِي حَقٌّ يَحِقُّ عَلَيَّ أَدَاؤُهُ، غَيْرَ كَاتِبٍ إِلَيَّ فِيهِ، وَلَا طَالِبٍ مِنِّي» اسْتَهِلَّ رَحِمَهُ اللَّهُ خِلَافَتُهُ بِدُسْتُورِهِ: «مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ، وَمَنْ عَصَى اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لَهُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ».

كَانَ عَمْرٌ مَحَبًّا لِلْعَدْلِ، لَا يَرَى أَفْضَلَ مِنْهُ، كَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ يَقُولُ: «الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ: أَمْرٌ اسْتِبَانٌ رُشْدُهُ فَاتَّبِعْهُ، وَأَمْرٌ اسْتِبَانٌ ضُرُّهُ فَاجْتَنِبْهُ، وَأَمْرٌ أَشْكَلُ عَلَيْكَ فَرُدَّهُ»^(٢) إِلَى اللَّهِ وَقَالَ: «الْأَكْبَادُ الْجَائِعَةُ أَوْلَى بِالصَّدَقَاتِ مِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ». وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَحَدُ وَلَاتِهِ: «أَمَّا بَعْدُ، أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ أَنَا مِنْ الْعُمَّالِ، قَدْ اقْتَطَعُوا مِنَ اللَّهِ عَنِّي، مَا لَا عَظِيمًا، لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى اسْتِخْرَاجِهِ مِنْ أَيْدِيهِمْ إِلَّا أَنْ أَمْسَهُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَذَابِ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَصْلَحَهُ اللَّهُ - أَنْ يَأْذَنَ لِي فِي ذَلِكَ، أَفْعَلُ» فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ: «أَمَّا بَعْدُ، فَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِنْ اسْتِزْدَانِكَ إِيَّائِي فِي عَذَابِ بَشَرٍ، كَأَنِّي لَكَ جُنَّةٌ»^(٣) مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، وَكَأَنَّ رِضَائِي عَنْكَ يَنْجِيكَ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ عَنِّي، فَانْظُرْ مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ عَدُولٌ، فَخُذْهُ بِمَا قَامَتْ عَلَيْهِ بِهِ الْبَيِّنَةُ، وَمَنْ أَقَرَّ لَكَ بِشَيْءٍ فَخُذْهُ بِمَا أَقَرَّ بِهِ، وَمَنْ أَنْكَرَ، فَاسْتَحْلِفْهُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ،

(١) حجيجي: محاسبي فمغالبي بالحجة.

(٢) ارجع في أمره بالعمل بما يرضى الله قدر اجتهادك.

(٣) وقاية وستر.

وَحَلَ سَبِيلَهُ، وَأَيْمٌ^(١) اللَّهُ، لَأَنْ يَلْقَوْا اللَّهَ بِخِيَانَتِهِمْ^(٢) أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِدِمَائِهِمْ وَالسَّلَامَ». وَأَتَى أَعْرَابِيَّ إِلَى عُمَرَ، فَقَالَ: «رَجُلٌ مِنَ الْبَادِيَةِ، سَاقَتُهُ إِلَيْكَ الْحَاجَةُ، وَبَلَّغَتْ بِهِ الْغَايَةَ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَنْ مَقَامِي هَذَا بَيْنَ يَدَيْكَ» فَقَالَ عُمَرُ: «مَا سَمِعْتُ أَبْلَغَ مِنْ قَائِلٍ، وَلَا أَوْعَظَ لِمَقُولٍ لَهُ مِنْ كَلَامِكَ هَذَا» وَقَضَى حَاجَتَهُ. وَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى عَامِلِهِ عَلَى الْعِرَاقِ «إِذَا أَمَكَّنَكَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْمَخْلُوقِ فَاذْكُرْ قُدْرَةَ الْخَالِقِ الْقَادِرِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ، أَكْبَرُ مِمَّا لَكَ عِنْدَ النَّاسِ». كَانِ عُمَرُ وَاسِعَ الصَّدْرِ حَلِيمًا، يُقِيلُ الْغَثْرَةَ، وَيَتَغَاضَى عَنِ الْهَفْوَةِ؛ أَسْمَعَهُ رَجُلٌ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ، فَقَالَ عُمَرُ: «لَا عَلَيْكَ^(٣) إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ يَسْتَفْزِنِي الشَّيْطَانُ بِعِزَّةِ السُّلْطَانِ، فَأَنَالَ مِنْكَ الْيَوْمَ، مَا تَنَالَهُ مِنِّي غَدًا، انصَرَفَ إِذَا شِئْتَ». وَكَانَ لِعُمَرَ غَلَامٌ يُقَالُ لَهُ دِرْهَمٌ، فَسَأَلَهُ: «مَا يَقُولُ النَّاسُ يَا دِرْهَمُ؟» قَالَ: «النَّاسُ كُلُّهُمْ بِخَيْرٍ، إِلَّا أَنَا وَأَنْتَ، قَالَ: «وَكَيْفَ ذَلِكَ؟» قَالَ: «إِنِّي عَهْدْتُكَ قَبْلَ الْخِلَافَةِ عَطِرًا، لَبَاسًا، فَارَهُ^(٤) الْمَرْكَبَ، طَيِّبَ الطَّعَامِ، فَلَمَّا وُلِّيتَ، رَجَوْتُ أَنْ أُسْتَرِيحَ، فَزَادَ عَمَلِي شِدَّةً، وَصَرْتُ أَنْتَ فِي بَلَاءٍ» قَالَ: «فَأَنْتَ حَرٌّ، فَازْهَبْ عَنِّي، وَدَعْنِي وَمَا أَنَا فِيهِ، حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ مِنْهُ مَخْرُجًا»، وَخَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً وَمَعَهُ حَرَسِي^(٥)، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَمَرَّ فِي الظُّلْمَةِ بِرَجُلٍ نَائِمٍ، فَعَثَرَ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: «أَعْمُونَ أَنْتَ؟» قَالَ: «لَا، فَهَمَّ بِهِ الْحَرَسِيُّ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «إِنَّمَا سَأَلَنِي أَعْمُونَ أَنْتَ»، فَقُلْتُ: «لَا». كَانَتْ عُمَرُ مُتَّفِقَةً فِي الدِّينِ، يَحِبُّ الْوَعْظَ، وَيَتَقَبَّلُهُ، قَالَ مُجَاهِدٌ: «أَتَيْنَا عُمَرَ

(١) أصل الكلمة: إيمان الله - جميع يمين - وتحدف النون تخفيفًا.

(٢) الكلام على المنكرين يرى أن يتركهم بخياناتهم لبحاسبهم عليها الله، وذلك خير من أن يقتلهم ويقتل الله وهو قاتلهم من غير أن يقطع بدنيهم ويقوم الدليل على إجرامهم.

(٣) لا بأس عليك.

(٤) الفاره: الحاذق الشيط.

(٥) شرطي.

تُعَلِّمُهُ، فما برحنا حتى تعلمنا منه»، وقال ميمون بن مهران: «كانت العلماءُ عند عمر تلاميذ، وهو مُعَلِّمُ العلماءِ»، وعن أنس بن مالك، خادم رسول الله، قال: «ما صَلَّيْتُ وراءَ إمام، بعد رسول الله، أَشْبَهَ صَلَاةَ بِصَلَاةِ الرُّسُولِ، من هذا الفتي، حين كان على المدينة، كان يُتِمُّ الرُّكُوعَ والسُّجُودَ، ويخَفِّفُ القيامَ والقِرَاءَةَ»، وقال عمر: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ، وَسَنَّ سُنَنًا مِنْ أَخَذَ بِهَا لَحِقَ، وَمَنْ تَرَكَهَا مُحَقٌّ^(١)، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْحَبَنَا، فَلْيَصْحَبْنَا بِخُمْسٍ: يُوَصِّلْ إِلَيْنَا حَاجَةً مِنْ لَا تُصِلْ إِلَيْنَا حَاجَتُهُ، وَيَذُلُّنَا مِنَ الْعَدْلِ إِلَى مَا لَا نَهْتَدِي إِلَيْهِ، وَيَكُونُ عَوْنًا لَنَا عَلَى الْحَقِّ، وَيُؤَدِّي الْأَمَانَةَ إِلَيْنَا وَإِلَى النَّاسِ، وَلَا يَغْتَابُ عِنْدَنَا أَحَدًا، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَهُوَ فِي حَرَجٍ^(٢) مِنْ صُحْبَتِنَا وَالدُّخُولِ عَلَيْنَا».

كان عمرُ حَكِيمًا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ، سَأَلَهُ رَجُلٌ، مَتَى أَتَكَلَّمُ؟ فَقَالَ: إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَصُمْتَ، قَالَ: فَمَتَى أَصُمْتُ؟ قَالَ: «إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ»، وَقَالَ: «إِذَا كَانَ فِي الْقَاضِي خَمْسُ خِصَالٍ، فَقَدْ كَمَلَ: عِلْمٌ بِمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَنَزَاهَةٌ عَنِ الطَّمَعِ، وَحِلْمٌ عَلَى الْخَصْمِ، وَاقْتِدَاءٌ بِالْأَثَمَةِ، وَمَشَاوَرَةٌ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ» وَقَالَ: «إِذَا أَمَكَّنِي الرَّجُلُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى أَضَعَ مَعْرُوفِي عِنْدَهُ، فِيدُهُ عِنْدِي أَعْظَمُ مِنْ يَدِي عِنْدَهُ»، وَقَالَ: «وَإِذَا أَتَاكَ الْخَصْمُ وَقَدْ فُقِئَتْ عَيْنُهُ، فَلَا تَحْكُمْ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَ خَصْمُهُ، فَلَعَلَّهُ قَدْ فُقِئَتْ عَيْنَاهُ جَمِيعًا» وَقَالَ: «ادْرَأُوا^(٣) الْحُدُودَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فِي كُلِّ شُبْهَةٍ، فَإِنَّ الْوَالِيَّ، إِذَا أَخْطَأَ فِي الْعَفْوِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَعَدَّى الْعُقُوبَةَ»، وَقَالَ: «اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ عَلَى قَدَرٍ مُقَامِكَ فِيهَا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ

(١) اغنى: ذهاب الشيء كله، حتى لا يرى له أثر.

(٢) اثم.

(٣) ادفعوا.

على قَدْرِ مُقَامِكَ فِيهَا»، وقال: «إِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَحْيِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَنْتَفِيكَ أَحَدٌ بِعَظْمَتِكَ، فَافْعَلْ»، وقال لجلسائه: «أَخْبِرُونِي مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ؟» قالوا: «رَجُلٌ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدَنِيَاهُ»^(١)، فقال عمرُ: «أَلَا أَنْبِتُكُمْ بِأَحَقِّ مِنْهُ»، قالوا: «بلى» قال: «رَجُلٌ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدَنِيَا غَيْرِهِ»^(٢).

وقال عن الخليفة: «إِنَّهُ الْأُمُّ فَرَشَتْ وَأَنَامَتْ». وقال: «اتَّقِ اللَّهَ، فَإِنَّ التَّقْوَى هِيَ الَّتِي لَا يَقْبَلُ غَيْرُهَا، وَلَا يُرْخَمُ إِلَّا أَهْلُهَا، وَلَا يُثَابُ إِلَّا عَلَيْهَا، وَإِنَّ الْوَاعِظِينَ بِهَا كَثِيرٌ، وَإِنَّ الْعَامِلِينَ بِهَا قَلِيلٌ».

كَانَ عُمَرُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، زَاهِدًا، وَرِعًا، مُتَوَكِّلًا، يَسْتَشْعِرُ خَشْيَةَ اللَّهِ، وَيَخَافُ عَذَابَهُ. دَخَلَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَيْهِ فِي الْمَرْضَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ أَقْفَرْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ، فَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً، وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ شَيْءٍ يُصْلِحُهُمْ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ، أَوْ إِلَى نَظْرَانِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِكَ لَكَفَيْتَكَ مَتَوْنَتَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فقال عمر: «أَجْلِسُونِي» فَأَجْلَسُوهُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، أَبَالَ فَقَرٍ تُخَوِّفُنِي يَا مَسْلَمَةُ؟ أَمَا مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَنِّي أَقْفَرْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِي مِنْ هَذَا الْمَالِ وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً، فَإِنِّي لَمْ أَمْنَعُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ، وَلَمْ أَعْطَهُمْ حَقًّا هُوَ لغيرهم، وَأَمَّا مَا سَأَلْتِ مِنَ الْوَصَاةِ^(٣) إِلَيْكَ، أَوْ إِلَى نَظْرَانِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، فَإِنَّ وَصِيَّتِي بِهِمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، وَإِنَّمَا بَنُو عُمَرَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ، رَجُلٌ اتَّقَى اللَّهَ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ، وَرَجُلٌ غَيَّرَ وَفَجَرَ،

(١) وذلك بأن يعمل عملاً يفضب الله ليكتسب شيئاً من أمور الدنيا.

(٢) أي عمل ما يفضب الله ليحلب لغيره خطأً من حظوظ الدنيا.

(٣) الوصية.

فلا يكون عُمرُ أوَّل من أعانهُ على ارتكابه... قال مَسْلَمَة: «فما احتِجَّ أحدٌ من أولادِ عُمرَ، ولا افتَقَر».

كان -رحمه الله- فيه رَقَّةٌ وأدبٌ: قال رَجَاءُ بْنُ حَيوَةَ لعبد العزيز بن عمر: «ما رأيت أكرمَ أدباً، وأكرمَ عِشْرَةً من أبيك - سَمَرْتُ عنده ليلة، فبينما نحن كذلك، إذا عَشِي^(١) المصباحُ ونام الغلام، فقلت: يا أمير المؤمنين، قد عَشِيَ المصباحُ ونام الغلامُ، فلو أذَلَّتْ لي أصلحتَه» فقال: ليس من مروءة الرجل أنْ يستخدمَ ضيفَهُ، ثم حَطَّ رداءَهُ عن مَنْكَبَيْهِ، وَصَبَ الزَّيْتَ في المصباحِ، وَأَشْخَصَ^(٢) الفتيْلَةَ، ثم رجع وأخذ رداءَهُ، وقال: «وما ضَرَّرَني: قُمْتُ وأنا عُمرُ، وَرَجَعْتُ وأنا عمرُ» ودخل رجلٌ عليه يعودُه في مرضه، فسأله عن علته، فلما أخبره، قال: «من هذه العلَّة مات فلانٌ وفلانٌ»، فقال له عمر: «يا أخي، إذا عُذَّتِ المَرُوضَى فلا تَنعَ إِلَيْهِمُ المَوْتَى، وإذا خَرَجْتَ من عندنا، فلا تُعْذِ إلينا»، وكان عمر إذا بدا له أنْ ينفرد بنفسه، وأراد أنْ يُقيمَ الناسَ الذين عنده، قال: «نعم إذا شِئْتُمْ، رَحِمَكُمُ اللهُ».

كان عمر صابراً، لَمْ يَجِدْ الجَزْعُ إلى قلبه سبيلاً: لَمَّا احتَضَرَ ابنه عبد الملك، قال له: «كيف تَجِدُكَ يا بُنَيَّ؟» قال: «أَجِدُني في الموت، فاحتَسِبْني، فإن ثوابَ اللهِ خيرٌ لك مِنِّي» فقال عمر: «والله يا بُنَيَّ، لَأَنْ تَكُونَ في ميزاني، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ في ميزانِكَ» فقال عبد الملك: «وأنا والله، لَأَنْ يَكُونَ ما تُحِبُّ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ ما أُحِبُّ» ولما وَقَفَ على قَبْرِهِ، قال: «رَحِمَكَ اللهُ يا بُنَيَّ، فلقد كنت ساراً مولوداً باراً ناشئاً».

(١) نفذ ما فيه من زيت.

(٢) أشخص الفتيْلَةَ: رفعها.

كَانَ عُمَرُ يَعْتَصِمُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ: قَالَ: «سَنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَوَلَاةُ الْأُمُورِ مِنْ بَعْدِهِ سُنَّتَا، الْأَخْذُ بِمَا اعْتَصَمَ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، لَيْسَ لِأَحَدٍ تَبْدِيلُهَا، وَلَا تَغْيِيرُهَا، وَلَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ خَالَفَهَا، فَمَنْ اهْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَمَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ، وَمَنْ تَرَكَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَاَهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى، وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» وَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بَعْدَ الْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابٌ، فَمَا أَحَلَّ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، فَهُوَ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ، فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلَا إِنِّي لَسْتُ بِقَاضٍ وَإِنَّمَا أَنَا مُنْفَذٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُخْرِكٍ وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ، أَلَا وَإِنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا، وَإِنْ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ آدَاءَ الْفَرَائِضِ، وَاجْتِنَابُ الْحَرَامِ».

كَانَ عُمَرُ يَرْجِعُ إِلَى الْحَقِّ وَيُذَعِّنُ لَهُ: دَخَلَ عَلَيْهِ ابْنُهُ عَبْدِ الْمَلِكِ، وَهُوَ يَنَامُ نَوْمَةَ الضُّحَى، فَقَالَ: «يَا أَبَتِ، أَتَنَامُ وَأَصْحَابُ الْحَوَائِجِ بِيَابِكَ؟» قَالَ: «يَا بُنَيَّ، إِنْ نَفْسِي مَطِئَتْ، فَإِنْ أَنْضَيْتُهَا^(١) قَطَعْتُهَا، وَمَنْ قَطَعَ الْمَطِيَّ^(٢)، لَمْ يَبْلُغِ الْحَاجَةَ» وَذَهَبَ عُمَرُ يَتَبَوَّأُ مَقِيلًا^(٣)، فَأَتَاهُ ابْنُهُ، فَقَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ؟» قَالَ: «أَيُّ بُنَيَّ، أَقِيلُ» قَالَ: «تَقِيلُ وَلَا تَرُدُّ الْمَظَالِمَ» قَالَ: «فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ، رَدَدْتُ الْمَظَالِمَ».

قَالَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَنْ لَكَ أَنْ تَعِيشَ إِلَى الظُّهْرِ؟» قَالَ: «أَذِنُ مِنِّي

(١) أنضأها: أزهزها.

(٢) المطي والمطايا: جمع مطية وهي الدابة السريعة.

(٣) قال مقيلاً: نام نصف النهار.

يا بُنَيَّ» فدنا منه، فالتزمه^(١)، وقبّله بين عَيْنَيْهِ، وقال: «الحمد لله الذي أخرج من صُلْبِي مَنْ يُعِينِي عَلَى دِينِي»، وخرج ولم يَقُلْ، وجلس لِرَدِّ المَظَالِمِ.

كان عمر متواضعًا: يقول جليسه: «إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ مَلْتُ عَنْ الْحَقِّ، فَضَعْ يَدَكَ فِي تَلَابِيهِ^(٢)»، ثم هُزِنِي، ثم قُلْ لِي: مَاذَا تَصْنَعُ؟» وَلَمَّا اسْتَخْلَفَ، قَالَ: «انظُرُوا رَجُلَيْنِ مِنْ أَفْضَلِ مَنْ تَجِدُونَ، فَجِيءَ بِرَجُلَيْنِ، فَكَانَ إِذَا جَلَسَ مَجْلِسَ الْإِمَارَةِ، أَمَرَ، فَأُلْقِيَ لَهُمَا وَسَادَةٌ قُبَالَتِهِ، فَقَالَ لهُمَا: إِنَّهُ مَجْلِسُ شَرِّهِ وَفِتْنَةٍ، فَلَا يَكُنْ لَكُمَا عَمَلٌ إِلَّا النَّظَرُ لِي فَإِذَا رَأَيْتُمَا مِنِّي شَيْئًا لَا يُوَافِقُ الْحَقَّ، فَخُوفَانِي، وَذِكْرَانِي اللَّهَ تَعَالَى»، وَأَطْرَى^(٣) رَجُلٌ عُمَرَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ عُمَرُ: «لَوْ عَرَفْتُ مِنْ نَفْسِي، مَا أَغْرِفُ عَنْهَا، مَا نَظَرْتُ فِي وَجْهِهِ».

كان عمر مُتَعَبِّدًا بِخَافِ اللَّهِ، وَيَخْشَى عَذَابَهُ: قَالَتْ فَاطِمَةُ زَوْجُ عُمَرَ: «قَدْ يَكُونُ فِي النَّاسِ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ صَلَاةً وَصِيَامًا مِنْ عُمَرَ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا قَطَّ كَانَ أَشَدَّ فَرَقًا وَخَوْفًا مِنْهُ». وَقَالَ أَحَدُ الصَّالِحِينَ: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا، كَانَ الْخَوْفُ عَلَى وَجْهِهِ، أَثْنَى مِنْهُ عَلَى وَجْهِ عُمَرَ، وَمَا رَأَيْتُ أَخَوْفَ مِنَ الْحَسَنِ وَعُمَرَ، كَأَنَّ النَّارَ لَمْ تُخْلَقْ إِلَّا لَهُمَا»، وَكَتَبَ الْحَسَنُ إِلَى عُمَرَ: «يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ أَنَّ لَكَ عُمَرُ نُوحَ وَمُلْكُ سُلَيْمَانَ وَيَقِينُ إِبْرَاهِيمَ وَحِكْمَةُ لُقْمَانَ، مَا كَانَ لَكَ بُدٌّ أَنْ تَقْتَحِمَ الْعَقَبَةَ^(٤) وَمَنْ وَرَاءَ الْعَقَبَةِ، الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، مِنْ أَخْطَأَتِهِ هَذِهِ، دَخَلَ هَذِهِ، فَلَمَّا أَتَاهُ الْكِتَابُ، أَخَذَهُ فَوَضَعَهُ عَلَى عَيْنَيْهِ، ثُمَّ بَكَى وَقَالَ: «مَنْ لِي بِعُمَرَ نُوحَ،

(١) التزمه: احتضنه.

(٢) تلابيب: جمع تلبيب: الثياب عند الصدر، وثبته جمع ثيابه عند عنقه في الخصومة ثم جر.

(٣) أطراه: مدحه بأحسن ما فيه.

(٤) يريد: لا مفر لك من الموت.

ويقين إبراهيم، وسُلطان سليمان، وحِكْمَة لقمان ؟ ولو نلت ذلك، لم يكن بُدَّ
من أن أشرب بكأس الأولين».

وسئل عُمَرُ يومًا: «ما يُبْكِيكَ ؟» فقال: «تلوُمُنِي أَنْ أَبْكِي، ولو أن
سَخْلَةً^(١) هَلَكْتُ على شاطئِ الفرات، لأخذ بها عُمَرُ يوم القيامة».

كان عمر يناجي ربه ويدعوه، فيقول: «اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أَبْلُغَ
رَحْمَتَكَ، فَإِنَّ رَحْمَتَكَ أَهْلٌ أَنْ تَبْلُغَنِي، فَإِنَّ رَحْمَتَكَ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَنَا شَيْءٌ،
فَلْتَسْغِنِي رَحْمَتَكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ» وكان رحمه الله يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَطَعْتُكَ
فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَلَمْ أَغْصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ وَهُوَ
الشِّرْكُ، فَاعْفِرْ لِي مَا بَيْنَهُمَا» وكان يدعو: «اللَّهُمَّ رَضِّنِي بِقَضَائِكَ وَبَارِكْ فِي
قَدْرِكَ، حَتَّى لَا أَحِبَّ تَعْجِيلَ شَيْءٍ أَخَّرْتَهُ، وَلَا تَأْخِيرَ شَيْءٍ عَجَلْتَهُ».

خطبَ الناسَ فقال: «أَحْمَدُ الله وأُثْنِي عليه» ثم قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَمْ
تُخْلَقُوا عَبَادًا، وَلَمْ تُثْرَكُوا سُدَى، وَإِنَّ لَكُمْ مَعَادًا، يَحْكُمُ الله بَيْنَكُمْ فِيهِ، فَخَابَ
وَخَسِرَ مَنْ خَرَجَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ، وَحُرِمَ جَنَّةُ عَرْضِهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ. واعلموا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ يَخَافُ الْيَوْمَ وَبَاعَ قَلِيلًا
بِكثِيرٍ، وَفَانِيًا بَبَاقٍ، ثُمَّ إِنَّكُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُشَيِّعُونَ غَادِيًا وَرَانِحًا إِلَى اللهِ، قَدْ قَضَى
نَحْبَهُ، وَبَلَغَ أَجَلَهُ، ثُمَّ تُفَيِّبُونَهُ فِي صَدْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَدْعُوهُ غَيْرَ مُوسِدٍ وَلَا
مُمَهَّدٍ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ، وَفَارَقَ الْأَحْبَابَ، وَسَكَنَ التُّرَابَ، وَوَاجَهَ الْحِسَابَ،
غَنِيًّا عَمَّا تَرَكَ، فَقِيرًا إِلَى مَا قَدَّمَ، وَأَيُّمُ اللهُ، إِنِّي لَأَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ الْقَالَةُ، وَمَا
أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الذُّنُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا عِنْدِي، فَاسْتَغْفِرِ اللهُ لِي وَلَكُمْ، وَمَا

(١) السخلة: الذكر أو الأنثى من أولاد الضأن والمعز ساعة يولد.

تَبْلُغُنَا حَاجَةً، يَتَّسِعُ لَهَا مَا عِنْدَنَا إِلَّا سَدَدْنَاهَا وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَدَدْتُ أَنْ يَدَهُ
مَعَ يَدِي، حَتَّى يَسْتَوِيَ عَيْشُنَا وَعَيْشُكُمْ...» ثُمَّ بَكَى، فَتَلَقَّى دُمُوعَ عَيْنَيْهِ
بِرَدَائِهِ، وَنَزَلَ وَكَانَتْ هَذِهِ آخِرَ خُطْبَةٍ لَهُ فِي السَّنَةِ الْأُولَى الْهَجْرِيَّةِ بَعْدَ الْمِائَةِ.

وَتَضَارَبَتِ الْأَقْوَالُ فِي مَوْتِ عُمَرَ: فَقِيلَ إِنَّ بَنِي أُمَيَّةٍ عَاجِلُوهُ، لِأَنَّهُ لَا يَعْهَدُ
بَعْدَهُ إِلَّا لِمَنْ يُصْلِحُ الْأُمُورَ، وَقِيلَ: إِنَّ مَوْلَاهُ^(١) دَسَّ لَهُ سُمًّا فِي طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ لِقَاءَ
أَلْفِ دِينَارٍ، فَمَرَضَ، وَأُخْبِرَ أَنَّهُ مَسْمُومٌ، ثُمَّ اسْتَدْعَى مَوْلَاهُ وَقَالَ لَهُ: «مَا حَمَلَكَ
عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» قَالَ: «أَلْفُ دِينَارٍ» فَقَالَ: «هَاتَهَا» فَأَحْضَرَهَا وَوَضَعَهَا عُمَرُ
فِي بَيْتِ الْمَالِ، وَقَالَ لِمَوْلَاهُ: «اذْهَبْ فَلَا يِرَاكَ أَحَدٌ».

قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «الْخُلَفَاءُ خَمْسَةٌ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَعُمَرُ
ابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ».

كَانَ عُمَرُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - غَضِيضَ الطَّرْفِ، جَوَادًا بِمَالِهِ، بِخِيَالًا بِدِينِهِ، مَا
كَانَ مَزَاحًا، وَلَا عِيَابًا، وَلَا بَهَائًا^(٢)، وَلَا مُقْتَنَابًا، كَانَ الْعَالَمَ الْوَرَعَ، الزَّاهِدَ
الْخَاشِعَ، الدِّينَ اللَّيِّنَ، السَّهْلَ الْقَرِيبَ، الَّذِي مَلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا، وَكَانَتْ الْآخِرَةُ
عِنْدَهُ فِي كِفَّةٍ، وَالْأُولَى فِي كِفَّةٍ، يَأْخُذُ مِنْ هَذِهِ لَتَلِكِ، وَيَزِرُغُ فِي دُنْيَاهُ، مَا يَجْنِيهِ فِي
آخِرَاهُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَرْضَاهُ.

(١) عبده المملوك له.

(٢) كمنعه، قَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَفْعَلْ، وَالْبَهَاءُ صِيغَةُ مَبَالِغَةٍ.

آفات المناظرة وما يتولد منها

من مهلكات الأخلاق (*)

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف والتشديق عند الناس، وقصد المباهاة والممارسة واستمالة وجوه الناس، هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدو الله إبليس، ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر، والعجب، والحسد، والمنافسة، وتركية النفس، وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة: من الزنا، والقذف والقتل، والسرقة، وكما أن الذي خيّر بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه، فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره، فكذلك من غلب عليه حب الإفحام والغلبة في المناظرة، وطلب الجاه، والمباهاة، دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس، وهيّج فيه جميع الأخلاق المذمومة، وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذمتها من الأخبار والآيات في ربع المهلكات، ولكننا نشير الآن إلى مجامع ما تقيجه المناظرة:

فمنها الحسد، وقد قال رسول الله ﷺ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». ولا ينفك المناظر عن الحسد، فإنه تارة يغلب، وتارة يُغلب، وتارة يحمد كلامه، وأخرى يحمد كلام غيره، فما دام يبقى في الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر، أو يظن أنه أحسن منه كلاماً وأقوى نظراً، فلا بد أن يحسده، ويجب زوال النعم عنه، وانصراف القلوب والوجوه عنه إليه، والحسد نار محرقة، فمن بلى به فهو في العذاب في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأعظم، ولذلك قال ابن عباس

(*) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

① ٧ ركه فحجته، ③ قوتان، مؤو

رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء لبعضهم على بعض فإنهم يتغايبون كما تتغايب التيوس في الزريبة. ④

بوسى سوسور سوسى

ومنها التكبر والترفع على الناس، فقد قال ﷺ: «مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ وَمَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ اللَّهُ». وقال ﷺ حكاية عن الله تعالى: «الْعِظْمَةُ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا قَصَمْتُهُ». ⑤ ولا ينفك المناظر عن التكبر على الأقران والأمثال، والترفع إلى فوق قدره، حتى إنهم ليقاتلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض، والقرب من وسادة الصدر، والبعد منها، والتقدم في الدخول عند مضايق الطرق، وربما يتعلل الغبي والمكار الخداع منهم بأنه يبغي صيانة عز العلم، «وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْهُي عَنِ الْإِذْلَالِ لِنَفْسِهِ» فيعبر عن التواضع الذي أثنى الله عليه وسائر أنبيائه بالدل، وعن التكبر الممقوت عند الله بعز الدين، تحريفاً للاسم وإضلالاً للخلق به، كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما.

ومنها الحقد، فلا يكاد المناظر يخلو عنه وقد قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ». وورد في ذم الحقد ما لا يخفى، ولا نرى مناظراً يقدر على ألا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه، ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء، بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد، وتربيته في نفسه، وغاية تماسكه الإخفاء بالنفاق، ويترشح منه إلى الظاهر لا محالة في غالب الأمر، وكيف ينفك عن هذا، ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه، واستحسان جميع أحواله في إيراده وإصداره، بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انغرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر.

دعواهم لا سوسور سوسى

ومنها الغيبة، وقد شبهها الله بأكل الميتة، ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة، فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه، فيحكي عنه لا محالة ما يدل على قصور

كلامه وعجزه ونقصان فضله، وهو الغيبة، فأما الكذب فبهتان، وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه، ويصغى إلى خصمه، ويقبل عليه، حتى ينسبه إلى الجهل، والحماقة، وقلة الفهم والبلادة.

ومنها تركية النفس، قال الله تعالى: «فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى». وقيل لحكيم: ما الصدق القبيح؟ فقال: ثناء المرء على نفسه، ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة، والتقدم بالفضل على الأقران، ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله: لست ممن يخفى عليه أمثال هذه الأمور، وأنا المتفتن في العلوم، والمستقل بالأصول، وحفظ الأحاديث، وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصِّلَف، وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه، ومعلوم أن الصِّلَف والتمدح مذمومان شرعاً وعقلاً.

ومنها التجسس، وتتبع عورات الناس، وقد قال تعالى: «وَلَا تَجَسَّسُوا» والمناظر لا ينفك عن طلب عثرات أقرانه، وتتبع عورات خصومه، حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بلده فيطلب من يخبر بواطن أحواله، ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يعدها ذخيرة لنفسه في إفصاحه وتخجيله إذا مسَّت إليه حاجة، حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه، وعن عيوب بدنه فعساه يعثر على هفوة، أو على عيب به من فرع أو غيره، ثم إذا أحس بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متماسكاً، ويستحسن ذلك منه، ويعد من لطائف التسبب، ولا يمتنع عن الإفصاح به إن كان متبجحاً بالسفاهة والاستهزاء، كما حكى عن قوم من أكابر المناظرين المعدودين من فحولهم.

ومنها الفرح لمساءة الناس، والغم لمسارهم، ومن لا يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسرّه لا محالة ما يسوء أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل، ويكون التباغض

بينهم كما بين الضرائر، فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فرائصها، واصفرَّ لونها، فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظرًا تغير لونه، واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطانًا ماردًا أو سبعًا ضارياً! فأين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء، وما نقل عنهم من المؤاخاة، والتناصر، والتساهم في السراء والضراء، حتى قال الشافعي رحمته الله: العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل، فلا أدري كيف يدعى الاقتداء بمذهب جماعة صار العلم بينهم عداوة قاطعة، فهل يتصور أن ينسب الأئس بينهم مع الغلبة والمباهاة؟ هيهات هيهات! وناهيك بالشر شرًا أن يلزمك أخلاق المنافقين، ويبرئك عن أخلاق المؤمنين والمتقين.

ومنها النفاق، فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه، وهم مضطرون إليه، فإنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياءهم ولا يجدون بدءًا من التودد إليهم باللسان، وإظهار الشوق والاعتداد بمكانهم وأحوالهم، ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور، ونفاق وفجور، فإنهم متوددون بالألسنة، متباغضون بالقلوب، نعوذ بالله العظيم منه! فقد قال رحمته الله: «إذا تعلّم الناس العلم، وتركوا العمل وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم» رواه الحسن، وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة. ومنها الاستكبار عن الحق، وكراهته، والحرص على المماراة فيه، حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق.

ومهما ظهر تشمّر لجمده وإنكاره بأقصى جهده، وبذل غاية إمكانه في المخادعة، والمكر والحيلة لدفعه، حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية، فلا يسمع كلامًا إلا وينبعث من طبعه داعية الاعتراض عليه، حتى يغلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن، وألفاظ الشرع، فيضرب البعض منها بالبعض، والمراء في مقابلة

الباطل محذور، إذ ندب رسول الله ﷺ إلى ترك المراء بالحق على الباطل، قال ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ» ① وَمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ» وقد سوى الله تعالى بين من افترى على الله كذباً، وبين من كذب بالحق، فقال تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ»، وقال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ».

ومنها الرياء، وملاحظة الخلق، والجهد في استمالة قلوبهم، وصرف وجوههم. والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أكبر الكبائر، كما سيأتي في كتاب الربا، والمناظر لا يقصد إلا الظهور عند الخلق، وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه. ② فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة، سوى ما يتفق لغير المتماسكين منهم: من الخصام المؤدى إلى الضرب واللكم واللطم، وتمزيق الثياب، والأخذ باللعن، وسب الوالدين، وشتيم الأستاذين، والقذف الصريح، فإن أولئك ليسوا معدودين في زمرة الناس المعترين، وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا ينفكون عن هذه الخصال العشر، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها، مع من هو ظاهر الانحطاط عنه، أو ظاهر الارتفاع عليه، أو هو بعيد عن بلده، وأسباب معيشته، ولا ينفك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له في الدرجة.

ثم يتشعب من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها: مثل الأنفة^{كبر} والغضب، والبغضاء، والطمع، وحب طلب المال واجاه للتمكن من الغلبة، والمباهاة، والأشر، والبطر، وتعظيم الأغنياء والسيلاطين، والتردد إليهم، والأخذ من حرامهم، والتجمل بالخيول والمراكب، والثياب المحظورة، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء، والخوض فيما لا يعني، وكثرة الكلام، وخروج الخشية والخوف والرحمة من القلب، واستيلاء الغفلة عليه

حتى لا يدري المصلي منهم في صلاته ما صَلَّى، وما الذي يقرأ ومن الذي يناجيه، ولا يحس بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التي تعين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة: من تحسين العبارة، وتسجيع اللفظ، وحفظ النوادر، إلى غير ذلك من أمور لا تحصى، والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم، ولهم درجات شتى، ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرهم عقلاً عن جمل من مواد هذه الأخلاق وإنما غايته إخفاؤها، ومجاهدة النفس بها.

واعلم أن هذه الرذائل لازمة للمشتغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول، وإقامة الجاه، ونيل الثروة والعزة، وهي لازمة أيضاً للمشتغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء، وولاية الأوقاف، والتقدم على الأقران.

وبالجملية هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يهمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد، أو يحويه حياة الأبد، ولذلك قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ» فلقد ضره مع أنه لم ينفعه، وليته نجا رأساً برأس، وهيئات هيئات! فخطر العلم عظيم، وطالبه طالب الملك المؤبد، والنعيم السرمد، فلا ينفك عن الملك أو المهلك، وهو كطالب الملك في الدنيا فإن لم يتفق له الإصابة في الأحوال لم يطمع في السلامة من الإذلال، بل لا بد من لزوم أفصح الأحوال.

فإن قلت: في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم، إذ لولا حب الرياسة لاندurst العلوم، فقد صدقت فيما ذكرته من وجه، ولكنه غير مفيد، إذ لولا الوعيد بالكرة، والصوم^(٣)جان، واللعب بالعصافير ما رغب الصبيان في المكتب، وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة، ولولا حب الرياسة لاندurst العلم، ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج، بل هو من الذين قال ﷺ فيهم:

③ مصابيح نور توحيد

«إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِأَقْوَامٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ». وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ». فطالب الرياسة في نفسه هالك، وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا، وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضر قصد الجاه. فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه، ويستضيء به غيره؛ فصالح غيره في هلاكه. فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها.

فالعلماء ثلاثة: إما مهلك نفسه وغيره، وهم المصححون بطلب الدنيا والمقبلون عليها، وإما مسعد نفسه وغيره، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً، وإما مهلك نفسه مسعد غيره، وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق، وإقامة الجاه، فانظر من أي الأقسام أنت، ومن الذي اشتغلت بالاعتداد له، فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من العلم والعمل، وسيأتيك في كتاب الرياء في جميع ربع المهلكات ما ينفي عنك الريبة فيه، إن شاء الله تعالى.

عبد الله بن الزبير بن العوام

أبو حبيب القرشي الأسدي، أمه « أسماء بنت أبي بكر » رضي الله عنه ولد عام الهجرة، وبايع النبي ﷺ وعمره سبع سنين، واحتجم النبي ﷺ مرة فأعطاه الدم، وقال له: أهرقه حيث لا يراك أحد، فلما خرج من البيت شربه، فلما رجع قال له النبي ﷺ: « ما صنعت بالدم؟ » قال: جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى عن الناس، فقال النبي ﷺ: « لعلك شربته » قال: نعم قال: « ويل منك وويل لك من الناس لا تمسك النار إلا تحلة القسم » أخرجه أبو يعلى في مسنده والبيهقي في الدلائل، قال أبو عاصم: فكانوا يرون أن القوة التي كانت به من ذلك الدم، كان ﷺ أحد الشجعان المعدودين، وأحد الخلفاء حضر وقعة اليرموك مع أبيه « الزبير » وحضر فتح أفريقية مع عبد الله بن أبي سرح وكان ابن أبي سرح أميراً على الجيش، ففتحوا طرابلس وتقدموا نحو تونس، فحشد لهم جرجير ملك أفريقيا جمعاً عظيماً، وصمد لهم في مائة ألف، وكان المسلمون في عدد قليل، فاستشار ابن أبي سرح عبد الله بن الزبير فأشار عليه بأن ينتخب عدداً من الشجعان ويتركهم ناحية، ويقاوم العدو بباقي الجيش، حتى إذا اشتد القتال، واختلطت الأبطال حمل أولئك الشجعان الجالسون على جيش جرجير من ورائه، حتى يخالطوا فسطاطه، فأرجو من الله النصر، فقبل ابن أبي سرح مشورته، وقال له: كن أنت الأمير على أولئك المنتخبين، فقال: نعم! فلما اشتد القتال حمل ابن الزبير بأصحابه حتى وصل فسطاط الملك جرجير فقتله، وأخذ ابنته سبية وقتل أكثر جيشه وفر الباقون فكتب ابن أبي سرح بالفتح والبشارة إلى « عثمان » وأرسل ابن الزبير بشيراً بذلك، وقاتل عن « عثمان » لما حوصر، وحضر وقعة الجمل مع « عائشة » وكان على الرجالة وجرح يومئذ بضعا وأربعين جراحة، وأعطت « عائشة » البشير

الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف، ثم اعتزل حروب «علي» و«معاوية» فلما بويع «معاوية» بالخلافة سنة أربعين بايعه «ابن الزبير» فلما أراد أن يبايع لابنه «يزيد» امتنع من ذلك «ابن الزبير» فلما مات «معاوية» لحق بمكة، وتعود بالحرم، فأرسل «يزيد» جيشاً للحجاز من أهل الشام، فكانت وقعة «الحرّة» على أهل المدينة، وفنك فيها أهل الشام فتكاً ذريعاً، ثم ذهبوا إلى ابن الزبير بمكة، فحاصروه بها مدة، ورموا الكعبة بالمنجنيق، ثم جاءهم الخبر بوفاة «يزيد بن معاوية» فصالحوا ابن الزبير وذهبوا إلى بلادهم، بعد أن راودوه على الذهاب معهم ليبايعوه بالخلافة فأبى عليهم وبايعه جميع الأنصار بالخلافة، بعد موت «يزيد» إلا أهل الأردن؛ فإنهم بايعوا «مروان بن الحكم» ثم غلب «مروان» على بقية الشام، ثم على مصر، وبقي تحت إمرة ابن الزبير الحجاز، واليمن، والعراق، ثم مات «مروان» وتولى ولده «عبد الملك» فغلب على العراق، وقتل «مصعب بن الزبير» ثم جهز الحجاج في جيش إلى «ابن الزبير» فحاصروه بمكة، ونصبوا المجانيق على أبي قبيس وقيقعان يرمون بها أهل مكة، فقاتل الشاميين قتالاً شديداً، حتى تفرق عنه أصحابه، وأخذوا الأمان، فبقي وحيداً مدة، ودخل المسجد، وجلس يصلي يوماً فرمى أهل الشام الكعبة بالمنجنيق، وهم يقولون:

خطارة مثل الفتيق المزيّد يرمى بها عواد أهل المسجد

فلما رأى ذلك «ابن الزبير» خرج إليهم بسيفه وقتلهم قتالاً شديداً، حتى جفلوا من قدامه مثل النعام، فناده «الحجاج»: ويلك يا ابن الزبير اقبل الأمان، وادخل في طاعة أمير المؤمنين يعني «عبد الملك» فرجع، ودخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وكانت إذ ذاك عمياء عمرها مائة سنة. فقال لها: ما تأمريني به؟ فإن القوم قد أعطوني الأمان، قالت: أرى أن تموت كريماً ولا تتبع فاسقاً لئيمًا، وأن يكون آخر فارك أكرم من أوله، قال: أخشى أن يمثلوا بي بعد الموت، قالت: إن

الكبش إذا ذبح لا يضره السلخ، فقبل رأسها وودعها وضمته إلى نفسها فخرج من عندها فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن الموت قد تَغشاكم سحابه، وأحدق بكم ربابه، واجتمع بعد تفرق، وأرجحن بعد تمشق ورجس نحوكم رعدده وهو مفرغ عليكم ودقه وقاد إليكم البلايا تتبعها المنايا فاجعلوا السيوف لها غرضاً واستعينوا بالصبر، ثم اقتحم يقاتل وهو يقول:

قد جد أصحابك ضرب الأعناق وقامت الحرب لها على ساق

وجعل يقاتل وحده حتى أخرجهم من المسجد وخاض في وسطهم إلى أن بلغ الحجون وكلما اجتمعوا عليه فرقهم وزادهم حتى أثخن بالجراحات وجاءه حجر من المنجنيق فأصابه في جبهته فسقط فبادر إليه أهل الشام فقطعوا رأسه وكان حين يحمل عليهم فيهمزهم يقول، يا له فتحاً لو كان معي رجال أو كان أخي مصعب حياً وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وبويع بالخلافة سنة أربع وستين وكان الإمام مالك عليه السلام يقول: ابن الزبير أحق بالخلافة من مروان وابنه والعلماء قاطبة على أنهما باغيان على ابن الزبير.

الأنصار

وهم بنو الخزرج وبنو الأوس، والأوس والخزرج أخوان، وأمهما قيلة واشتهر أبناؤهما ببني قيلة، وأبوها «حارثة بن ثعلبة العنقاء بن عمرو مزيقيا بن عامر الملقب بماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن الأزدي». ويقال: «بالسين» بن الغوث فنسبهم يرجع إلى الأزدي من قحطان. قال: «حسان ابن ثابت»:

أما سألت فإننا معشر نُجُب الأزدي نسبنا، والماء غسان

خرج جدّهم «عمرو بن عامر» من اليمن، عندما رأى الجرذ يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم فعلم ألا بقاء للسد على ذلك، فعزم على الانتقال عن اليمن، فكاد قومه، فأمر أصغر بنيه، إذا أغلظ عليه، ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه، ففعل ابنه ما أمره به، فقال «عمرو»: لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي، وعرض أمواله، فقال أشراف اليمن: اغتصموا غصبة «عمرو بن عامر» فاشترؤا منه أمواله، وانتقل في ولده وولد ولده، فقالت الأزدي: لا نتخلف عن «عمرو بن عامر» فباعوا أموالهم، وخرجوا معه، فتحرب السد بعدهم، وانفجر سيله على أهل تلك البلاد، ففرق أكثرهم، فلما وصلوا الحجاز تفرقوا، فنزلت خزاعة مر الظهران، المعروف الآن بوادي فاطمة، ومكة، ونزلت الأوس والخزرج المدينة، وذهب آل جفنة بن عمرو بن عامر إلى الشام، فسكنوها، وصارت لهم دولة هناك، ويقال في القحطانيين عمومًا، حمير أقيانها، وملوكها، والأزد فرسانها، وكندة ريحانتها ومذحج عددها، ولسانها، يعني اليمن كلها، ولما نزل الأوس والخزرج المدينة وجدوا يهود قينقاع والنضير، وقريظة متوطنين بها قبلهم، فنزلوا معهم، وحالفوهم فكانت السيطرة في

بدء الأمر لليهود عليهم، ثم رجعت الغلبة للأ نصار على اليهود، فغلبوهم على أكثر مزارع المدينة وكثروا بها، وكان تبع اليماني لما غزا فارس وترك في الجاهلية، مر على المدينة، فترك ابنه عند الخزرج، فلما ذهب قتلوه، فلما رجع من غزوه وسمع بفعلهم نزل عليهم وحاربهم، فكانوا يحاربونه بالنهار، ويقرونه بالليل، فيعجبه ذلك منهم، ويقول: والله إن قومنا لكرام، فبينما هو يقاتلهم يوماً إذ جاءه حبران من علماء اليهود، فنهياه عن قتالهم، وقالوا: لا تفعل أيها الملك، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينه، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذلك؟ فقالوا: إنها مهاجر نبي، يخرج من الحرم من قريش، تكون داره، وقراره، فانتهى عن ذلك، وانصرف عن المدينة إلى بلاده، بعد أن هود، وكان بدء إسلامهم في السنة الحادية عشرة من البعثة، قدم منهم ستة نفر حجاج من الخزرج، فدعاهم النبي ﷺ فيمن دعا من القبائل، فأجابوا حالاً، وواعدوه العام المقبل، وقالوا له: يا رسول الله إنا تركنا قومنا على عداوة، وإن يجمعهم الله عليك، فلا أحد أعز منك، ثم جاءه في السنة الثانية عشرة، اثنا عشر رجلاً، اثنان من الأوس وعشرة من الخزرج، فبايعوه على السمع والطاعة بلا قتال، وأرسل النبي معهم «مصعب بن عمير» و«عبد الله بن أم مكتوم» يعلمانهم، ويصليان بهم. ثم جاءه في السنة الثالثة عشرة ثلاثة وسبعون رجلاً، وواعدوه الليلة الثانية من ليالي منى ليلاً، لئلا يشعر بهم مشركوهم، ثم لما جاء الليل خرجوا لميعاد رسول الله يتسللون، حتى اجتمعوا عند الشعب وراء العقبة الكبرى، فجاءهم النبي ومعه عمه «العباس بن عبد المطلب» - وكان إذ ذاك على دين قريش -، ولكن حضر أمر ابن أخيه، ليتوثق له، فتكلم، وقال: يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه عز ومنعة من قومه، في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللعوق بكم، فإن كنتم ترون

أنكم وافون له بما دعوتوه إليه، ومانعوه ممن أرادته، فأنتم وما تحملتكم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم، فمن الآن فدعوه؛ فإنه في منعة من قومه وبلده، فقالوا له: قد سمعنا ما قلت يا «أبا الفضل» فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك، وربك، ما أحببت فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم، فأخذ «البراء بن معرور» بيده وقال: نعم - والذي بعثك بالحق - لنمنعك مما تمنع منه أئمتنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر فقال النبي: أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاءً على قومهم، ففعلوا، فقال النبي ﷺ للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاءً ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي، يعني المسلمين من المهاجرين، فقالوا: نعم. فقال أحدهم: هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم. قال: إنكم تباعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا هُكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، وأسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على هُكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة، فقالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن ولفينا؟ قال: «الجنة» قالوا: أبسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، ثم قال لهم النبي ﷺ: «ارفضوا إلى رجالكم» فقال له: «العباس بن عباد» ابن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسافنا، فقال رسول الله ﷺ: «لم تؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم». وهذا غاية منهم ﷺ في النجدة، وكمال الإيمان، فإن من معنى حجيج كثير من جميع قبائل العرب، يريدون أن يقاتلوه، وهم هذا العدد القليل، وقد وفوا ﷺ فحاضوا معه

غمار الحرب، وركبوا إليها كل ذلول وصعب، وأزاحوا عن سبيل هذا الدين كل عقبة وكر، فسامهم الله بالأنصار، وأثنى عليهم: بمحبتهم من هاجر إليهم، وبعدم حسده على ما أوتي، وبالإيثار، وجزاهم جزاء الأبرار، وأسكنهم الفردوس الأعلى دار القرار، قال: «ابن عباس» - رضي الله عنهما - ما استلت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قيلة يعنى - الأوس والخزرج - ولما اجتمعت الأحزاب من قبائل العرب، وحاصروا المدينة مع قريش، في غزوة الخندق، أشفق النبي ﷺ على المسلمين، فرأى أن يخفف عنهم، بعض هذا الجيش، فأرسل إلى عيينة بن حصن الفزاري والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بقومهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة، ولا عزيمة الصلح، إلا المروضة، في ذلك، فلما أراد أن يفعل بعث إلى «سعد بن معاذ» سيد الأوس، و«سعد بن عباد» سيد الخزرج فذكر ذلك لهما، واستشارهما، فقالا له: «يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك؛ إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وتألّبوا عليكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» فقال له: «سعد بن معاذ»: يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، ولا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة، إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا وأعزنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: فأت ذاك، فتناول «سعد بن معاذ» الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتابة ثم قال: ليجهدوا علينا. ولما سار ﷺ إلى قافلة قريش ووصل قرب بدر، وبلغه أن قريشاً

خرجوا في جيش لمنع قافلته. استشار أصحابه، لأنه ما خرج بهم إلا للغير، ولم
 يكونوا على استعداد فأجابه «عمر» و«المقداد» من المهاجرين فكرر الاستشارة
 يريد جواب الأنصار، لأنهم أكثر ذلك الجيش، ولأنهم بايعوه على أن يمنعوه مما
 يمنعون منه نساءهم، وأبناءهم في ديارهم، وقالوا له: قد برئت ذمتنا منك يا رسول
 الله حتى نصل ديارنا، فخاف ألا يقاتلوا معه خارج المدينة، فقال له «سعد بن
 معاذ»: والله كأنك تريدنا يا رسول الله؟ فقال: «أجل» قال: فقد آمنا بك،
 وصدقناك وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض بنا
 يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا
 البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا
 عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به
 عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول: «سعد» ونشطه، قال:
 سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى
 مصارع القوم. فإن الأنصار لا تستقصى مناقبهم ولو كلف القلم بعد فضائلهم
 لتعب في الإحصاء.

الزبير رضي الله عنه

هو ابن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي أبو عبد الله حوارى^(١) رسول الله - ﷺ - وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، وخاله حمزة، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، ومن يعدون بألف فارس أسلم وله اثنتا عشرة سنة. وهاجر الهجرتين قال «عروة»: كان الزبير طويلاً، تخط رجلاه الأرض إذا ركب، وقاتل الزبير وهو غلام بمكة رجلاً، فكسر يده، فمر بالرجل محمولاً على صفية، وقيل لها، إن ابنك فعل به هذا. فقالت للرجل: كيف رأيت الزبير؟ أقطاً وغمراً؟ أو مشتملاً صقراً؟ وهو أول من سل سيفه في سبيل الله، وذلك أنه قيل: أخذ رسول الله - ﷺ - فأقبل «الزبير» يشق الناس بسيفه، والنبي - ﷺ - بأعلى مكة. وكانت عليه عمامة صفراء يوم بدر معتجراً^(٢) بها، فقال النبي: إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير وقيل: إن آية «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي^(٣) نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» نزلت فيه، وفي «المقداد». وذلك أن قريشاً لما أخرجوا «خبیب بن عدي» إلى التنعيم، وصلبوه وتركوه معلقاً على خشبة هناك مدة، وعنده حرس من فتيانهم، فبلغ ذلك النبي - ﷺ -، فقال لأصحابه: من ينزل خبيباً من خشبته وله الجنة؟ فقال «الزبير» ﷺ: أنا يا رسول الله، وصاحبي «المقداد بن عمرو» فركبا فرسيهما، وقدا مكة، فوصلا إلى خشبة «خبیب» ليلاً، فوجدا عنده أربعين فتى من قريش نائمين، فنزل المقداد وأنزل «خبیباً» من الخشبة، ووضعاه أمام «الزبير» على فرسه، وانصرفا راجعين فاستيقظ المشركون من

(١) الحوارى: الناصر والحميم وناصر الأنبياء.

(٢) الاعتجار: لف العمامة دون التلحي.

(٣) يشري: يبيع والمراد يجود بها لإعلاء كلمة الله.

حس خيولهم، فقاموا إلى الخشبة فلم يجدوا «خبيباً» فتبعوا أثرهما، فلما لحقوهما رمى «الزبير» خبيباً في الأرض، فابتلعت، فلقب «خبيب» ببيع الأرض ثم وقفاهم، وكشف «الزبير» لثامه وكان منتقياً^(١) وقال لهم: ماذا تريدون يا معشر قريش منا؟ أنا «الزبير بن العوام» وأمي «صفية بنت عبد المطلب» وخالي «حمزة» وهذا المقداد بن عمرو صاحبي أسدان رابضان يدفعان عن أشبالهما فإن شتتم ناضلناكم، وإن شتتم بارزناكم واحداً، واحداً، وإن شتتم قاتلناكم جميعاً، وإن شتتم انصرفتم إلى أهلكم سالمين، فانصرفوا راجعين إلى مكة وهم أربعون رجلاً. أو يزيدون، وقدم «الزبير» ورفيقه المدينة. فنزلت الآية فيهم. ولما انهزمت هوازن يوم حنين خرج «مالك بن عوف» رئيسهم عند الهزيمة حتى وقف في فوارس من قومه على ثنية من الطريق. وقال لأصحابه: قفوا حتى يمضي ضعفائكم ويلحق أخراكم، فوقف هنالك حتى مضى من كان لحق بهم من المنهزمين. فطلعت خيل لرسول الله ﷺ و«مالك» وأصحابه على الثنية. فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ فقالوا: نرى أقواماً واضعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم، فقال: هؤلاء بنو سليم، ولا بأس عليكم منهم، فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ومضوا، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قومًا عارضي رماحهم أغفلاً على خيلهم. فقال: هؤلاء الأوس والخزرج، ولا بأس عليكم منهم، فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سليم، ثم طلع فارس فقال لأصحابه: ماذا ترون، قالوا: نرى فارساً طويل الباد، واضعاً رمحاً على عاتقه. عاصباً رأسه بملاءة حمراء، فقال: هذا «الزبير بن العوام». وأحلف باللات ليخالطنكم، فاثبتوا له، فلما انتهى «الزبير» إلى أصل الثنية - أبصرهم فصمد إليهم فلم يزل يطاعنهم

(١) منتقياً: واضعاً نقاباً.

حتى أراحهم عنها، وقتل «ياسرا» اليهودي يوم خيبر مبارزة «وياسر» أخو «مرحب» الذي قتله علي عليه السلام. وقال النبي ﷺ يوم الخندق: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال «الزبير»: أنا، فذهب وأتاه بخبرهم: فقال النبي ﷺ: «إن لكل نبي حوارياً وحواريي «الزبير». وقال ابنه «عروة»: كان في «الزبير» ثلاث ضربات بالسيف، كنت أدخل أصابعي فيها، ألعب وأنا صغير، ثنتان يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك. وكان الجيش يوم اليرموك قالوا له: احمل يا أبا عبد الله نحمل معك، فقال لهم: أخاف ألا تصدقوا، فقالوا: بلى فحمل في صفوف الروم حتى خرج من ورائهم، ثم كرّ راجعاً، ثم حمل ثانياً كذلك، ثم حمل ثالثاً وفي كل حملة يُقتل... وضرب في الثالثة تلك الضربة بين كتفيه واستشهد بوادي السباع وهو راجع إلى المدينة قتله «عمرو بن جرموز التميمي» غدرًا، وذلك لما التقى الجيشان ناداه «علي» أن اخرج إليّ يا «زبير» فخرج إليه فقال له «علي»: أنشدك الله، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنك تقاتل «عليًا» وأنت له ظالم؟ قال: نعم ولم أذكر ذلك إلا الآن ولو تذكرته ما وصلت هذا المحل، ثم انصرف راجعاً إلى جيشه، وقال لابنه «عبد الله»: قم بجيشك فإني والله - ما دخلت في أمر إلا وخرجت منه، إلا في هذه المرة، فإني أخطأت، وإني راجع إلى المدينة، فقال له ابنه: ما بك من ضعف رأي، ولكن رأيت رماح بني هاشم طوالاً فغضب وقال: أجل أتخوفني بها، إنها لرماح حداد، يحملها فتية أمجاد، ثم أقبل نحو جيش «علي» رافعاً رمحاً، فقال: أظن «الزبير» قد أغضب، وما قصده قتلكم، فنكسوا له الرماح، حتى يجوز، فنكسوا له الرماح حتى خرج من الجيش، فلما وصل وادي السباع، نام تحت شجرة هناك فجاءه «عمر بن جرموز» .. وقتله.. وهو نائم، وأتى بسيفه إلى «علي» يبشره، فقال له علي: «أبشر بالنار»، وسبقت ترجمة ولده عبد الله.

صراع (*)

اتخذ قومٌ شجرة، صاروا يعبدونها، فسمع بذلك ناسكٌ مؤمن بالله، فحمل فأساً، وذهب إلى الشجرة ليقطعها، فلم يكذب يقترب منها، حتى ظهر له (إبليس) حائلاً بينه وبين الشجرة، وهو يصيح به.

- مكانك أيها الرجل.. لماذا تريد قطعها؟

- لأنها تضل الناس.

- وما شأنك بهم؟ دعهم في ضلالهم؟..

- كيف أدعهم، ومن واجبي أن أهديهم!..

- من واجبك أن تترك الناس أحراراً، يفعلون ما يحبون.

- إنهم ليسوا أحراراً، إنهم يصفون إلى وسوسة الشيطان..

- أو تريد أن يُصفوا إلى صوتك أنت؟!

- أريد أن يُصفوا إلى صوت الله!

- لن أدعك تقطع هذه الشجرة.

- لا بد لي أن أقطعها.

فأمسك إبليس بخناق الناسك، وقبض الناسك على قرن الشيطان، وتصارعا طويلاً.. إلى أن انجلت المعركة عن انتصار الناسك، فقد طرح الشيطان على الأرض، وجلس على صدره، وقال له:

- هل رأيت قوتي؟!

فقال إبليس المهزوم بصوت مخنوق:

- ما كنت أحسبك بهذه القوة، دغني، وافعل ما شئت.

فخلّى الناسك سبيل الشيطان، وكان الجهد الذي بذله في المعركة قد نال

منه فرجع إلى صومعته، واستراح ليلته..

تعباً عظيماً

(*) للأستاذ توفيق الحكيم.

فلما كان اليوم التالي حَمَلَ فأسه، وذهب يريد قطع الشجرة وإذا بإبليس يخرج له من خلفها صائحًا:

- أَعَذْتَ اليوم أيضًا لقطعها؟!

- قلت لك لا بُدَّ لي من أن أقطعها.

- أَوَظُنُّكَ قادرًا على أن تغلبني اليوم أيضًا؟

- سأظل أقاتلك حتى أغلي كلمة الحق!

- أربي إِذْن قُذرتك!

وأمسك بخناقه، فأمسك الناسك بقرنه، وتقاتلا وتَصَارعا، إلى أن أسفرت

الموقعة عن سقوط الشيطان تحت قدمي الناسك، فجلس على صدره، وقال له:

- ما قولك الآن في قوتي؟!

- حقًا - إن قوتك لعجيبة، دَعْنِي وافعل ما تريد.

لفظها الشيطان بصوته المتهدج المخنوق، فأطلق الناسك سراحه، وذهب

إلى صومعته واستلقى من التعب والإعياء، حتى مضى الليل، وطلع الصبح،

فحمل الفأس، وذهب إلى الشجرة فبرز له إبليس صائحًا فيه:

- أَلنَّ ترجع عن عزمك أيُّها الرجل؟

- أبدًا .. لا بُد من قطع دابر هذا الشر!

- أَتَحسب أني أتركك تفعل؟!

- إن نازلتني فإنني سأغلبك، فتفكر إبليس لحظة، ورأى أن النزال

والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تتيح له النصر عليه، فليس أقوى من

رجل يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة..!

ما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل غير باب واحد. الحيلة، فَتَلَطَّفَ، وقال له بلهجة النَّاصِح المشفق.

- أتعرف لماذا أعارضك في قطع هذه الشجرة؟! إني ما أعارضك إلا خشية عليك ورحمة بك، فإنك بقطعها ستُعَرِّضُ نفسك لسيخط الناس من عبادها، ما لك وهذه المتاعب تجلبها على نفسك..؟ اتركْ قِطْعَهَا، وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك، وتعيش في أمن وطمأنينة، وسلامة!

-دينارين؟!

- نعم في كل يوم.. تجدهما تحت وسادتك! فأطرق الناسك مليًا يفكر، ثم رفع رأسه، وقال لإبليس:

- ومن يَضمُنُ لي قيامك بالشرط؟!

- أعهذك على ذلك، وستعرف صدق عهدي.

- سأجربك.

- نعم.. جربي.

- اتفقنا.

ووضع إبليس يده في يد الناسك وتعاهدا وانصرف الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح، ويمد يده، ويدسُّها تحت وسادته، فتخرج دينارين حتى انصرم الشهر وفي ذات صباح دس يده تحت الوسادة، فخرجت فارغة، فقد قطع إبليس عنه فيَضَ الذهب، فغضب الناسك، ونهض فأخذ فأسه، وذهب إلى قطع الشجرة، فاعترضه إبليس في الطريق، وصاح فيه:

- مكائك!. إلى أين؟

- إلى الشجرة.. أقطعها!

فقهقه الشيطان ساخرًا!.

- تَقَطَّعُهَا لَأَيِّ قِطْعَتٍ عَنْكَ الثَّمَنُ؟
- بل لأزبل الغواية، وأضيء مشعل الهداية.
- أنت؟!
- أهزأ بي أيها اللعين؟!
- لا تؤاخذني!... منظرِكَ يثير الضحك!
- أنت الذي يقول هذا، أيها الكاذب المخالط؟
- وانقُصْ الناسك على إبليس وقبض على قرنه، وتصارعا لحظة، وإذا
- المعركة تنجلي عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس، فقد انتصر وجلس على
- صدر الناسك مزهوًّا محتلاً يقول له:
- أين قوتك الآن أيها الرجل؟!
- فخرج من صدر الناسك المقهور صوت كالحشرة يقول:
- أخبرني كيف تغلبت أيها الشيطان!
- فقال له إبليس:
- لما غضبت لله غَلَبْتَنِي، ولما غضبت لنفسك غَلَبْتُكَ... لما قاتلت لعقيدتك
- صرعني، ولما قاتلت لمنفعتك صرَعْتُكَ!

المناقشة

- كيف احتال الشيطان لهزيمة الإنسان؟
- لم انتصر الرجل أولاً، وهزم آخرًا؟
- ماذا كان سلاح كل منهما في نضاله؟
- اضرب مثلاً من الحياة، يتحقق فيه مغزى هذه القصة.
- بم تسمي هذا اللون من القصص؟ حاول تأليف أقصوصة من هذا الطراز.

ما لي ولسعيد بن جبير

جاءَ رسل «الحجاج» يطلبون «سعيد بن جبير» المحدث الأمين، والفقيه الرصين، والورع التقي فقال سعيد: ما أراي إلا مقتولاً! لقد كنت أنا وصاحبان لي دعونا لله تعالى حين وجدنا حلاوة الدعاء، وسألناه الشهادة، فكلنا صاحبي رزقها، وأنا أنتظرها... وبكى ابنه، فقال له: ما يبكيك، ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟

وخرج رسل «الحجاج» لسعيد.. وفي الطريق رأوا منه عجباً، ولم يلبثوا أن قالوا: يا خير أهل الأرض! ليتنا لم نعرفك! ، ولم تُرسل إليك! الويل^(١) لنا طويلاً، كيف ابتلينا^(٢) بك؟ أعدنا^(٣) عند خالقنا يوم الحشر الأكبر! فهو العدل الذي لا يجور^(٤)... فقال سعيد: ما أعذرتي لكم! وأرضاني لما سبق من علم الله تعالى فيّ! فبكوا.

ولما جاء الليل تركوه خاليًا إلى ربه، حتى إذا انشقَّ عمود الصبح قرع عليهم الباب، يوقظهم. فقالوا: صاحبكم ورب الكعبة. وخرجوا إليه ليكون ودخلوا على «الحجاج» فسأهم: أتيثموني بـ «سعيد بن جبير»؟ قالوا: نعم! قال: أدخلوه. فلما أدخل عليه بادره «الحجاج».

- ما اسمك؟

- «سعيد بن جبير». فقال «الحجاج».

(١) الويل: كلمة عذاب يقال: ويلك، وويله، وويلي قال «عطاء بن يسار» الويل واد في جهنم لو أرسلت فيه الجبال لماعت من حزه.

(٢) ابتلينا: يقال بلّاه: أي جربه واختبره.

(٣) أعدنا: يقال: عاذ به، من باب قال. واستعاذ به أي لجأ إليه ليحميه.

(٤) لا يجور: الجور هو الظلم والميل عن القصد، وبابه قال: تقول: جار عن الطريق، وجار عليه في الحكم.

- أنت الشقي بن كسير.
- لعل أُمي كانت أعلم باسمي منك!
- شقيت، وشقيت أُمك!
- الغيبُ يعلمه غيرك!!
- لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى^(١)!
- لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً!
- فما قولك في محمد؟.
- تعني النبي «محمدًا» صلى الله عليه وسلم؟.
- نعم.
- سيد ولد آدم، النبي المصطفى^(٢) ... خير من بقي.. وخير من مضى!
- فما قولك في «أبي بكر»؟.
- الصديق! مضى حميدًا! وعاش سعيدًا، سلك منهاج^(٣) نبيه - صلى الله عليه وسلم - لم يُغَيِّر، ولم يبدل!
- فما تقول في «عمر»؟.
- «عمر» الفاروق، خيرة الله! وخيرة رسوله مضى حميدًا على منهاج صاحبيه، ولم يُغَيِّر، ولم يبدل؟.
- فما تقول في «عثمان»؟.
- المقتول ظلمًا، المجhez جيش العسرة^(٤)!..

(١) تلظى: تلهب.

(٢) المصطفى: من اصطفاه: أي اختاره.

(٣) النهج بوزن الفلسن، والنهج بوزن المذهب، والمنهاج: الطريق الواضح.

(٤) جيش العسرة: الجيش الذي جهزه النبي صلى الله عليه وسلم وخرج به إلى «تبوك».

- الحافر بئر رومة المشتري بيته في الجنة. صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على ابنتيه، وزوجه النبي صلى الله عليه وسلم - بوحي من السماء..
- فما تقول في «علي» ؟
- ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أول من أسلم، زَوْج فاطمة، أبو الحسن والحسين!
- فما تقول في «معاوية» ؟
- شغلتنى نفسي عن تصريف أمور هذه الأمة، وتمييز أعمالها...!
- فما تقول «في» ؟
- أنت أعلم بنفسك...!
- بُثَّ^(١) علمك.
- إذا يسوءك ولا يسرك
- بُثَّ علمك.
- اعفني...!
- لا عفا الله عني إن أعفيتك.
- إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، ترى من نفسك أمورًا تريد الهية، وهي تقحمك الهلكة، وسترد غدًا فتعلم...!
- ويلك يا سعيد..؟
- الويل لمن زحزح عن الجنة، وأدخل النار!. فأمر «الحجاج» باللؤلؤ^(٢)، والزبرجد، والياقوت، فجمع بين يدي «سعيد».

(١) بث: أنشر. يقال: بث الخبر من باب رد وابنه بمعنى نشره. وابنه سره أي أظهره له.

(٢) اللؤلؤ والزبرجد، والياقوت: جواهر معروفة رفيعة القيمة، غالية الثمن.

- إن كنت قد جمعت هذا لتفتدي به من فرع يوم القيامة فلا بأس. وإلا ففرعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ولا خير في شيء جمع للدنيا، إلا ما طاب وزكا.

- فقال «الحجاج»: ما لك لا تضحك؟ فأجابه «سعيد».
- وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين؟.. والطين تأكله النار...
- فما بالنا نضحك؟
- لم تستو القلوب...!
- أما والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحدًا قبلك. ولا أقتلها أحدًا بعدك...؟
- إذا تفسد عليّ دنيائي...! وأفسد عليك آخرتك!
- اختر يا «سعيد» أي قتلة تريد أن أقتلك؟
- اختر لنفسك يا «حجاج» فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة...!

- أفتريد أن أعفو عنك؟
- إن كان العفو فمن الله... وأما أنت فلا براء لك، ولا عذر.
- اذهبوا فاقتلوه..

فلما خرج «سعيد» من الباب ضحك.. فأخير «الحجاج» بذلك.. فأمر برده إليه وقال:

- ما أضحكك؟
- عجبت من جرأتك على الله، وحلم الله عليك...!
فأمر «الحجاج» بالنطع. فبسط، ثم قال: اقتلوه...!
فقال «سعيد»: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً، وما أنا من المشركين.. فقال «الحجاج»: شدوه لغير القبلة..

قال «سعيد»: فأينما تولوا فثم وجه الله..

قال الحجاج:

- كبوه على وجهه.. فقال «سعيد»:

- منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

قال «الحجاج»: اذبحوه.

قال «سعيد»: أما أي أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. خذها مني حتى تلقاني يوم القيامة: «اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي».

وذبح «سعيد» على النطع، عقوبةً على جرأته في الحق..! ولم يعش «الحجاج» إلا ليالي معدودات بعدها، قضائها، مدعورًا تلاحقه الرؤى وأشباح جريمته النكراء...

وما أكثر ما سمعه القرييون منه يحدث نفسه ويصيح: ما لي ولسعيد بن جبير...! ما لي ولسعيد بن جبير...!

الناقشة

- ماذا عُرف عن سعيد بن جبير؟

«ما أراي إلا مقتولاً»: ما الخواطر التي حملت «سعيد بن جبير» على النطق بهذا القول؟.

- بماذا علل «سعيد» إنكاره لبكاء ابنه؟ وما رأيك في هذا التعليل؟

- ما الذي دفع رسل الحجاج أن يقولوا لسعيد ما قالوا؟ وما دلالة ما قالوه على ما يبغش في خواطرهم؟

- ما أعذربي لكم، ما أرضاني لما سبق من علم الله تعالى في.. وضح ما تشتمل عليه هذه العبارة من معان. وبين بواعثها من نفس «سعيد».
- «أنت الشقي بن كسير» ما يقصد «الحجاج» بهذه العبارة؟ وبماذا رد «سعيد» عليه؟ وما المعاني التي قصد إليها «سعيد» في رده؟
- «الغيب يعلمه غيرك» ما معنى هذه العبارة؟ وماذا يريد «سعيد» بها؟
- لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهًا؟ ما الذي حدا بسعيد أن يقول هذا القول؟ وما المضمون الذي أراد أن ينقله إلى «الحجاج»؟
- بماذا تفسر سؤال «الحجاج» لسعيد عن «محمد صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين»؟ وما رأيك في إجابة «سعيد بن جبير» عن كل سؤال؟
- بماذا أجاب «سعيد بن جبير» حين سئل عن معاوية؟ وماذا يحمل جوابه من لباقة وحسن تخلص؟
- ما رأي «سعيد بن جبير» في «الحجاج»؟ ولماذا طلب إعفائه من إبداء الرأي؟ «ويلك يا سعيد» ما الذي تشير إليه هذه العبارة من معان؟ ومتى قالها الحجاج؟ وماذا كان جواب «سعيد بن جبير» عليها؟
- أمر «الحجاج» أن يجمع اللؤلؤ والزبرجد والياقوت بين يدي «سعيد ابن جبير» فماذا كان قصد بذلك وما تعليق «سعيد بن جبير» على عمل «الحجاج»؟.
- «إذا تفسد عليّ دنيائي، وأفسد عليك آخرتك» ما مضمون هذه العبارة؟ وعلام رد بها «سعيد بن جبير»؟
- خير «الحجاج» سعيدًا في قتلة يرضاها. فماذا كان رد «سعيد» على هذا التخيير؟ وما رأيك في هذا الرد؟

- كانت هناك فرصة « لسعيد » في عفو « الحجاج » حالت قوة الإيمان عند « سعيد » دون تحقيقها وضح ذلك في ضوء قراءتك.
- « ما أضحكك » متى وجه « الحجاج » هذا السؤال إلى « سعيد »؟ وبماذا أجابه « سعيد » وعلام يدل هذا الرد؟
- حاول « الحجاج » أن ينال من قوة إيمان « سعيد » في لحظاته الأخيرة... فماذا فعل؟ وكيف خيب « سعيد » محاولته؟
- ما الجريمة التي أخذ « الحجاج » بها « سعيد بن جبير »؟ وكيف قضى « الحجاج » بقية حياته بعد مقتل « سعيد »؟ وبم تعلل ذلك؟
- إذا حاولت أن تحدد ملامح شخصية كل من « سعيد » و« الحجاج » في ضوء هذا الموضوع فماذا تقول؟

نصيحة

رحل الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، ومعه إبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما قدم على عبد الملك سلم عليه بالخلافة، وقال: قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز في الشرف والأبوة، وكمال المروءة والأدب وحسن المذهب، والطاعة والنصيحة مع القرابة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، فافعل به يا أمير المؤمنين ما يستحق أن يفعل بمثله في أبوته وشرفه.

فقال عبد الملك: يا أبا محمد، قد أذكرتنا حقاً واجباً، ائذنوا لإبراهيم. فلما دخل وسلم بالخلافة أمره بالجلوس في صدر المجلس، وقال له: إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف، فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامتة إلا سألتها.

فقال إبراهيم: أما الخوانج التي نبتغي بها الزلفى^(١) ونرجو بها الثواب^(٢)، فما كان لله خالصاً ولنبيه. ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة، لا أجد بدءاً من ذكرى إياها. قال: أهي دون أبي محمد؟ قال: نعم، قال: قم يا حجاج. فنهض الحجاج خجلاً لا يبصر أين يضع رجله.

ثم قال له عبد الملك: قل يا بن طلحة. قال: تالله يا أمير المؤمنين، إنك عمدت إلى الحجاج، في ظلمه وتعديه على الحق، وإصغائه إلى الباطل، فوليته الحرمين^(٣)، وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله وأبناء المهاجرين والأنصار، يسومهم^(٤) الخسف^(٥)، ويظوهم بطغام^(٦) أهل الشام، ومن لا أرى له إقامة الحق، ولا إزاحة الباطل. فأطرق عبد الملك ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: كذبت يا بن

(١) الزلفى: المنزلة والقربى.

(٢) الثواب: الأجر.

(٣) الحرمين: يريد مكة والمدينة.

(٤ - ٥) يسومهم: يوليهم إياه ويدلهم عليه. الخسف: الظلم.

(٦) الطغام: أوغاد الناس.

طلحة، ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك. قم فرمما ظنّ الخيرُ بغير أهله.
 قال ابن طلحة: فقامت وأنا ما أبصر طريقاً، وأتبعني حرسياً^(١). وقال له:
 اشدد يدك به. فما زلت جالساً حتى دعا الحجاج. فما زالاً يتناجيان^(٢) طويلاً،
 حتى ساء ظني، ولا أشك أنه في أمري، ثم دعا بي فلقيني الحجاج في الصحن^(٣)
 خارجاً، فقبل بين عيني، وقال: أحسن الله جزاءك. فقلت في نفسي: إنه يهزأ بي،
 ودخلت على عبد الملك، فأجلستني مجلسي الأول، ثم قال: يا بن طلحة، هل اطلع
 على نصيحتك أحد، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ولا أردت إلا الله ورسوله
 والمسلمين، وأمير المؤمنين علم ذلك. فقال عبد الملك: قد عزلت الحجاج عن
 الحرمين، لما كرهته فيه، وأعلمته أنك استقلت ذلك عليه. وسألتني له ولاية
 كبيرة، وقد وليته العراقين، وقررت له أن ذلك بسؤالك، ليلزمه من حقك ما لا
 بد له من القيام به، فاخرج معه غير ذام لصحبته.

(١) حرسياً: قائداً للحرس.

(٢) يتناجيان: يتكلمان.

(٣) الصحن: فناء بين الدار.

(١) حرسياً: واحد من حرس السلطان.

(٢) يتناجيان: يتساران.

(٣) الصحن: المراد البهو والفناء أي وسط الدار.

الناقشة

- كيف قدم «الحجاج» إبراهيم بن محمد بن طلحة إلى «عبد الملك بن مروان»؟ وعلام يدل ذلك؟ وبماذا أجابه «عبد الملك»؟
- كيف لقي «عبد الملك» إبراهيم بن محمد حين أدخل عليه؟ وماذا قال له؟

- بماذا أجاب «إبراهيم» الخليفة؟
- ماذا دار بين الخليفة وبين «إبراهيم» من حديث؟ وعلام يدل ذلك؟ وبماذا تصف مضمون هذا الحديث؟ وعلام يدل في شخصية «إبراهيم»؟
- كذبت «يا بن طلحة» ظن منك «الحجاج» غير ما هو فيك قم فربما ظن الخير بغير أهله. هذه العبارة قالها «عبد الملك» لإبراهيم تعقيماً على حديثه. فماذا كان أثرها في نفسه؟ وما مظاهر ذلك عليه؟
- التقى «الحجاج» بإبراهيم في صحن القصر فماذا كان بينهما؟ وبماذا فسر «إبراهيم»؟
- كيف قابل «عبد الملك» إبراهيم حين عاد إليه؟ وماذا دار بينهما من حوار؟

- بماذا تفسر هذا التصرف من «عبد الملك بن مروان»؟

- إذا طلب إليك أن تحدد معالم شخصية كل من:

(أ) «عبد الملك بن مروان» كخليفة؟

(ب) «الحجاج» كوال للخليفة؟

(ج) «إبراهيم بن محمد بن طلحة» كواحد من الرعية. فماذا تقول؟

ما قيل في اللسان والصمت

بما قالوا في صفة اللسان قول الأسدي:

وأصبحت أعددتُ للنائبِ عرضاً بريئاً وغضباً صقيلاً^(١)
ورفع لسان كحد السنان ورُمِحاً طويلَ القناة عسولاً
وقال الأعشى:

أدافعُ عن أعراضكم وأعيركم لساناً كمقراض الخفاجي ملحياً^(٢)
وقال الشاعر:

أرى الناس في الأخلاق أهلَ تخلُّقٍ وأخبارهم شقي فعرفَ ومُنكر^(٣)
قريباً لندانيهم إذا ما رأيتهم ومُختلفاً ما بينهم حين تخبر^(٤)
فلا تحمدنُ الدهرَ ظاهرَ صفحة من المرء ما لم تبلُ ما ليس يظهِر^(٥)
لما المرءُ إلا الأصفران: لسانه ومعقوله، والجسمُ خلقٌ مصورٌ
وما الزينُ في ثوب تراه وإنما يزينُ الفقى مخبوره حين يُخبرُ
فإن طرّةً راققتك منهم فربما أمرٌ مذاق العودِ والعودُ أخضر^(٦)

(١) الغضب الصقيل: السيف البراق القاطع.

(٢) المقراض: المقتص. الخفاجي: نسبة إلى خفاجة وهم حي من بني عامر، ولعله يقصد واحداً منهم كان صانعاً. الملح: القاطع.

(٣) أهل تخلق: يقلد بعضهم بعضاً في الأخلاق، وليسوا على طبع واحد.

(٤) حين تخبر: حين تتكشف أحوالهم وحقائق أمورهم.

(٥) ظاهر صفحة: حسن الوجه وجمال الهيئة. تبل: تخبر وتكشف.

(٦) طرة: ليس يريد الطرة بعينها، وهي شعر الجملة، وإنما المراد أي حالة ظاهرة خادعة بهرجها.

وقال سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ ^(١) في ذلك:

ودعني برقاها إنما تنزل الأعصم من رأس اليفع ^(٢)
تسمع الحداث قولاً حسناً لو أرادوا غيرهُ لم يُستطع ^(٣)
ولساناً صيرفياً صارماً كحسام السيف ما مس قطع ^(٤)
وقال جرير ^(٥):

وليس لسيفي في العظام بقية ولا السيف أشوى وقعة من لسانيا ^(٦)
وقال الآخر:

وجرح السيف تذلمة فبنا ويبقى الدهر ما جرح اللسان

-
- (١) هو سويد بن أبي كاهل الشكري. شاعر مخضرم من مقدمي الشعر في الجاهلية والإسلام. وهذه الأبيات من قصيدته البارعة التي قال فيها الأصمعي: كانت العرب تفضلها وتعدّها من حكمها. وكانت تسميها في الجاهلية (التيمة) وهي مثبتة بكاملها بالمفضليات.
- (٢) الأعصم: الوعل. اليفع: أعلى مكان في الجبل.
- (٣) يعني أنها مطبوعة على القول الحسن، فلا تستطيع العدول عنه بحال.
- (٤) اللسان الصوري: الذي ينقد الكلام ويتخير أحسنه وأمضاه يقول: إن لسانه أقطع من السيف.
- (٥) هو جرير بن عطية الخطفي البزيعي. كان هو والفرزدق والأخطل المقدمين على شعراء الإسلام. وكان جرير أكثرهم فنون شعر، وأسلسهم ألفاظاً وأقلهم تكلفاً، وأرقهم نسيباً، وأيسرهم شعراً مع عفة ودين. قال الأصمعي: كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً، فيبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحداً واحداً ومنهم من كان ينفخه فيرمي به. وثبت له الفرزدق والأخطل. كانت ولادته سنة ٢٩ وتوفي باليمامة سنة ١١١ هـ - ٧٢٩ م بعد وفاة الفرزدق بسنة.
- (٦) يعني مع أن سيفه لا يترك بقية في العظم لشدة مضائه، فإن لسانه أشد مضاء من سيفه هذا.

وقال الآخر:

أبا ضبيعة لا تعجل بسيئة إلى ابن عمك واذكرة يا حسان
إما تراني وأثوابي مقاربة ليست بخز ولا من نسج كنان
فإن في الجحد هماتي وفي لغتي علوية ولساني خير محسان

وقال أعرابي يمدح رجلاً برقة اللسان فقال: كان والله لسانه أرق من ورقة، وألين من سرقة^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: ما بقي من لسانك؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته، ثم قال: والله ما يسرني به مقول من معد، والله إني لو وضعته على صخر لفلقه، أو على شعر لحلقه.
قال وسمعت أعرابياً يصف لسان رجل، فقال: كان يشول بلسانه شولان البروق، ويتخلل به تخلل الحية^(٢).

(١) السرقة: القطعة الرقيقة من الحرير المنسوج.

(٢) يشول: يرفع. البروق: الناقة إذا طلبت الفحل فلما حينئذ ترفع ذنبها. وإنما سمي شوال شوالاً لأن النوق شالت بأذناها فيه. فإن قال قائل: قد يتفق أن يكون شوال في وقت لا تشول الناقة بذنبها فيه، فلم بقي هذا الاسم عليه؟ قيل له: إنما جعل هذا الاسم له سمة حيث اتفق أن شالت النوق بأذناها فيه، فبقي عليه كالسمة وكذلك رمضان، وإنما سمي لمرض الماء فيه من شدة الحر، فبقي عليه البرد، وكذلك ربيع، وإنما سمي لرعيهم الربيع فيه، وإن كان قد يتفق هذا الاسم في وقت البرد والحر.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: أتيناهُ فأخرجَ لسانه كأنه مخراقٌ لاعب^(١).
وقال العباس بن عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، فيم
الجمال؟ قال: في اللسان.

وكان مُجاشِعُ بن دارم خطيباً سليطاً، وكان مُهْشَلُ (بن دارم) بَكِيئاً منزوراً^(٢)،
فلما خرجا من عند بعض الملوك عَذَلَهُ مُجاشِعُ في تركه الكلام، فقال له مُهْشَلُ: إني
والله لا أَحْسِنُ تَكْذَابَكَ ولا تَأْتِمُكَ^(٣)، تشولُ بلسانك شولان البرق، وتخللُ
تخللُ الباقرة.

وقالوا: أغلى جميع الخلق مرتبة: الملائكة، ثم الإنس، ثم الجن وإنما صار هؤلاء
المزية على جميع الخلق بالعقل، وبلاستطاعة على التصرف، بالمنطق.
وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة ممثلة، أو بهيمة
مهملة.

وقال الأعور الشَّيْثِيُّ^(٤):

وكانن ترى من صامت لك مُعْجَبٍ زِيَادُتُهُ أو نَقْصُهُ في التكلُّمِ
لِسَانُ الْفَقِي نِصْفٌ وَنِصْفٌ فَوَادُهُ فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

(١) مخراق اللاعب: هو خرفة تفتل ويمررها اللاعبون مرّاً سريعاً، وقد تكون منديلاً، يضرب بها بعضهم
بعضاً، هوّاً ولعباً.

(٢) بكيئاً: قليل الكلام. منزوراً: لا يكاد يتكلم إلا إذا ألححت عليه.

(٣) تكذابك: أن أكذب مطلق، تأتمك: أن أرتكب الإثم كما ترتكب.

(٤) هو بشر بن منقذ: كان شاعراً مخشي اللسان. وكان مع على يوم الجمل. وهذان البيتان لزهير بن
أبي سلمى وهما ضمن معلقته، ومن شعر الأعور قوله:

إذا ما المرء قصر ثم مرت عليه الأربعون عن الرجال

ولم يلحق بصالحهم فدعه فليس بلاحق أخرى الليالي

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر، زرى عليه، للذي رأى من دمامته، وقصره، وقلته فقال النعمان: تسمع بالمعدي لا أن تراه! (١)
فقال: أبيت اللعن! إن الرجال لا تكال بالقفران، ولا تؤزن بالميزان، وليست بمسوك يستقى بها (٢)، وإنما المرء بأصغريه: بقلبه ولسانه، إن صال صال بخنان، وإن قال قال ببيان.

وكان يقال: عقل المرء مدفون تحت لسانه.
وقال الحسن (البصري): لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن هم بالكلام تكلم به له أو عليه.

وكان أعرابي يجالس الشعبي فيطيل الصمت، فسئل عن طول صمته فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقالوا: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب.

وقالوا: مقتل المرء بين لحييه وفكيه.

وأخذ أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بطرف لسانه، وقال: هذا الذي أوردني الموارء.

وقالوا: ليس شيء أحق بطول سجن من لسان.

وقالوا: اللسان سبغ عقور.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «وَهَلْ يُكَبُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟».

(١) بالمعدي: المنسوب إلى حي معد. ويروى: لأن تسمع بالمعدي خير من أن تراه.

(٢) المسوك: الجلود (للقرب).

وتكلم رجلٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم فخطل في كلامه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « ما أُعطيَ العبدُ شراً من طلاقة اللسان ».

وقال خالد بن عبد الله القسريّ لعمر بن عبد العزيز رحمه الله: من كانت الخلافة زانته فقد زنتها، ومن كانت شرفته فقد شرفتها، فأنت كما قال الشاعر:

وتزیدین أطيبَ الطيبِ طيباً أن تمسّيه، أين مثلك أينا

وإذا الدرّ زان حُسنَ وجوه كان للدرّ حُسنُ وجهك زينا

قال عمر: إن صاحبكم أعطى مقولاً، ولم يُعط معقلاً.

وقال الشاعر:

لسانك مغسولٌ ونفسك شحّة ودون الثريّا من صديقك مالكا

وأنت امرؤٌ خلطٌ إذا هي أرسلت يمينك شيئاً أمسكته شمالكا

وقال أبو العتاهية:

والصمتُ أجملُ بالقُتي من منطقي في غير حينه

كل امرئ في نفسه أعلى وأشرف من قرينه

الشعر بضاعة تجدي

قال إبراهيم السويقي مولى المهالبة: تتابعت على سنون ضيقة، وألح على العسر وكثرة العيال وقلة ذات اليد، وكنت مشتهراً بالشعر أقصد به الإخوان وأهل الأقدار وغيرهم. حتى جفاني كل صديق، وملني من كنت أقصده فأضربي ذلك جدًا.

فبينما أنا جالس مع امرأتي في يوم شديد البرد، إذ قالت: يا هذا: قد طال علينا الفقر، وأضر بنا الجهد^(١)، وقد بقيت في بيتي كأنك زمن^(٢) هذا مع كثرة الولد، فأخرج عني واكفني نفسك، ودعني مع هؤلاء الصبيان، أقوم بهم مرة، واقعد بهم أخرى، ثم ألحت علي في الخصومة وقالت: يا مشنوم، تعلمت صناعة لا تجدي عليك شيئاً، قال، فضجرت منها ومن قولها، وخرجت على وجهي في ذلك البرد والريح، وليس عليّ إلا فرو خلق، ليس فوقه دثار، ولا تحته شعار، وعلى عنقي إزار لو قد جاءت ريح شديدة ذهبت به من بلاه وكثرة رقاعه، فخرجت متحيراً لا أدري أين أقصد، ولا حيث أذهب، فبينما أنا أجيل الفكر إذ أخذتني سماءً بقطر متدارك فدفعت^(٣) إلى دار بابها روشن^(٤) مطل، ودكان^(٥) لطيف، وليس عليه أحد، فقلت: أستتر بالروشن إلى أن يسكن المطر.

فقصدت قصد الدار فإذا بجارية قاعدة، قد جلست على باب الدار كالحافظة عليه، فقالت لي: إليك يا شيخ عن بابنا فقلت: أنا؛ ويحك! لست بسائل، ولا أنا ممن تتخوف ناحيته، فجلست على الدكان، فلما سكنت نفسي، سمعت نغمة رخيمة من وراء الباب تدل على نغمة امرأة، فأصغيت فإذا بكلام يدل على عتاب، سمعت نغمة أخرى مثل ذلك وهي تقول فعلت وفعلت،

(١) الجهد: المشقة. (٢) الزمن: المبتلى.

(٣) دفعت إلى مكان كذا انتهت إليه. (٤) الروشن: الرف.

(٥) الدكان: الدكة المبنية للجلوس عليها.

والأخرى تقول: بل أنت فعلت وفعلت، إلى أن قالت إحداهما: أنا جعلت فداك.
إن كنت أسأت فاغفري، واحفظي بيتين لمولانا إبراهيم السويقي، فقالت الأخرى
وما قال، فإنه يبلغني عنه أشعار ظريفة، فأنشدتها تقول:

هبيني يا معذبتني أسأت وباهجران قبلكم بدأت
فأين الفضل منك فدتك نفسي على إذا أسأت كما أسأت

فقالت: ظرف والله وأحسن.

قال إبراهيم: فلما سمعت ذكرى، وذكر مولانا، علمت أنهما من بعض
نساء المهالبة، فلم أتمالك أن دفعت الباب، وهجمت عليهما، فصاحتا وراء يا
شيخ. عنا حتى نستتر، وتوهمتا أي من أهل الدار، فقلت لهما: جعلت فداكما
لا تحتشما مني فإني إبراهيم السويقي، ثم قلت لإحداهما: بحق حرمتي إلا
شفعتني فيها، ووهبت لي ذنبها، واسمعي مني فأنا الذي أقول:

خذي بيدي من الحزن^(١) الطويل فقد يعفو الخليل عن الخليل

فقالت: قد فعلت، وصفححت عن زلتها، ثم قالت: يا أبا إسحاق، ما لي
أراك بهذه الهيئة الرثة والبزّة الخلق^(٢)؟ فقلت: يا مولائي، تعدى على الدهر، ولم
ينصفني الزمان، وجفاني الإخوان، وكسدت بضاعتي، فقالت: عز علي ذلك،
وأومات إلى الأخرى، فضربت بيدها على كمها، فسلت دملجاً^(٣) من ساعدها ثم
ثنت باليد الأخرى فسلت منها دملجاً آخر فقالت: يا أبا إسحاق، خذ هذا،
واقعد على الباب مكانك وانتظر الجارية تأتيك، ثم قالت: يا جارية، سكن المطر؟
قالت: نعم، فقامتا.

(١) الحزن كالحزن: ضد السرور.

(٢) يستوي فيه المذكر والمؤنث.

(٣) الدملج: ما على الساعد من الخليل.

وخرجت وقعدت مكاني، فما شعرت إلا والجارية قد وافت بمنديل فيه خمسة
أثواب وصرة فيها ألف درهم، وقالت: تقول لك مولائي: أنفق هذه فإذا احتجت
فصر إلينا حتى نزيدك إن شاء الله.

فأخذت ذلك وقمت، وقلت في نفسي: إن ذهبت بالدملجين إلى امرأتي
قالت: هذا لبنائي وكأثرتي^(١) عليهما، فدخلت السوق، فبعتهما بخمسين ديناراً
وأقبلت. فلما فتحت الباب صاحت امرأتي وقالت: قد جئت أيضاً بشؤمك،
فطرح الدنانير والدراهم بين يديها والثياب، فقالت: من أين هذا؟ قلت: من
الذي تشاءمت به، وزعمت أنه بضاعتي التي لا تجدي، فقالت: قد كانت عندي
في غاية الشؤم، وهي في غاية البركة.

(١) كثره: غلبه بالكثرة.

(٢) كثره: غلبه بالكثرة.

(٣) كثره: غلبه بالكثرة.

المناقشة

١- صور «إبراهيم السويقي» ما عاناه من قسوة الحياة، وشظف العيش: فماذا قال؟

٢- خرج (إبراهيم السويقي) من داره طريداً، يلهبه تأنيب زوجته، وتؤرقه رثاءة منظره. متى كان خروجه من الدار؟ وعلام أنبته زوجته؟ وماذا قالت له في ذلك؟ وكيف كانت حاله حين خروجه؟

٣- كان لجوء إبراهيم إلى الدار التي جلس على دكانها خيراً وبركة فما الذي دفعه إلى تلك الدار؟ وبماذا أقنع الجارية التي حاولت طرده؟

٤- ماذا سمع الشاعر من وراء الباب حين سكنت نفسه؟
٥- كيف وصل إلى سكان الدار التي لجأ إليها؟ وماذا دار بينهم من حديث؟

٦- رجع الشاعر إلى أهله بالمال الوفير والكسوة. فما مصدر ذلك كله؟

٧- كيف استقبلته زوجته حين رآته؟ وكيف تصرف فيما حصل عليه؟

لا أفلح قاض لا يقيم الحق

كان عبيد بن طيبان^(١) قاضي الرشيد بالرقّة - وكان الرشيد إذ ذاك بها - فجاء رجل إلى القاضي فاستعداه^(٢) على عيسى بن جعفر، فكتب إليه القاضي ابن طيبان.

«أما بعد أبقي الله الأمير وحفظه، وأتم نعمته، أتاني رجل فذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير - أبقاءه الله تعالى - خمسمائة ألف درهم، فإن رأى الأمير أن يحضر مجلس الحكم أو يوكل وكيلًا يناظر خصمه أو يرضيه فعل». ودفع الكتاب إلى رجل، فأتى باب ابن جعفر، فدفع الكتاب إلى خادمه، فأوصله إليه، فقال له: كل هذا الكتاب.

فرجع الرجل إلى القاضي، فأخبره؛ فكتب إليه: «أبقاك الله وأمتع بك، حضر رجل يقال له فلان ابن فلان، وذكر أن له عليك حقًا، فسر معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله تعالى».

وروجه الكتاب مع عونين^(٣) من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر، ودفعا الكتاب إليه فغضب، ورمى به، فانطلقا، فأخبراه فكتب إليه: «حفظك الله وأمتع بك، لا بد أن تصير أنت أو وكيلك إلى مجلس الحكم، فإن أبيت أنهيت أمرك إلى أمير المؤمنين - إن شاء الله». ثم وجه الكتاب مع رجلين من أصحابه فقعدا على باب عيسى بن جعفر حتى طلع، فقاما إليه - ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه، ورمى به فعادا فأبلغاه ذلك، فختم قمطره^(٤)، وأغلق بابه، وقعد في بيته.

فبلغ الخبر إلى الرشيد، فدعاه وسأله عن أمره، فأخبره الخبر، فقال: يا أمير المؤمنين، اعفني من الولاية، فوالله لا أفلح قاض لا يقيم الحق على القوي

(١) قاضي الرقة.

(٢) استعديت القاضي على الظالم: طلبت منه النصرة.

(٣) العون: الظهير.

(٤) القمطر: ما يسان فيه الكتاب.

والضعيف. فقال له الرشيد: من يمنعك من إقامة الحق؟ فقال: هذا عيسى بن جعفر. فقال الرشيد لإبراهيم بن عثمان: سر إلى دار عيسى بن جعفر، واختتم أبوابه كلها، لا يخرج منها أحد، ولا يدخل إليها أحد، حتى يخرج إلى الرجل من حقه، أو يسير معه إلى مجلس الحكم فأحاط إبراهيم بداره خمسمائة فارس، وأغلق الأبواب كلها، فتوهم عيسى بن جعفر أن الرشيد قد حدث عنده رأي في قتله، ولم يعرف الخبر، فجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصراخ في منزله، وضح النساء فسكتهن، ثم قال لبعض الأعوان من غلمان إبراهيم: ادع لي أبا إسحاق لأكلمه، فأعلموه، فجاء حتى وقف على الباب، فقال له عيسى: ويحك. ما حالنا؟ فأخبره خبر القاضي ابن طبيان، فأمر بإحضار خمسمائة ألف درهم من ساعته فأحضرت. وأمر أن تدفع إلى الرجل. فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره، فقال: إذا قبض الرجل ماله، فافتح أبوابه، وعرفه أن ما رأيته من سيرتك مع القاضي فيأيك ومعارضته.

المناقشة

- ماذا كتب القاضي إلى «عيسى بن جعفر»؟ وما الأمور التي خيره بينها؟ وما رأيك في هذا التصرف؟
- «قال له كل هذا الكتاب» كان هذا رد «عيسى بن جعفر» على القاضي. فماذا يحمل في طياته؟ وبماذا تحكم على قائله؟
- لماذا وجه القاضي رده إلى «عيسى بن جعفر» مع عونين من أعوانه؟ وفيم خيره في هذا الرد؟
- كيف قابل «عيسى بن جعفر» ما وجهه إليه القاضي؟ وبماذا تفسر ذلك؟
- وجه القاضي إلى «عيسى» كتاباً ثالثاً يختلف عن سابقيه في بعض مضمونه. وضح ذلك.
- لم يكن تصرف «عيسى بن جعفر» في هذه المرة خيراً من سابقتها فماذا فعل؟ وما دلالة ذلك على حالته النفسية؟
- كيف واجه القاضي تصرف «عيسى» معه؟
- متى استدعى الرشيد القاضي «عبيد بن طيبان»؟ وماذا دار بينهما من حديث؟
- ما الأمر الذي وجهه الرشيد حيال «عيسى بن جعفر»؟
- ما الذي توهمه «عيسى بن جعفر» حين رأى ما حل به؟ وكيف صار منزله؟
- متى عرف «عيسى بن جعفر» حقيقة الأمر؟ وكيف تصرف؟
- بماذا أمر الرشيد حين علم أن «عيسى بن جعفر» قد أحضر المال المدعى به عليه؟

الدعابة (*)

كثيراً ما يتداعبُ الأصدقاءُ، ويتبادلون الفكاهات، طُرْحاً للكُلْفَة، وثَقَّةً بالألْفَة، وترويحاً عن النفس، ومَجْلَبَةً للسرور، وإظهاراً للقدرة على التندر في غير ما حرج ولا ثلب.

وهم حينما يتفاكهون يتخَيَّرُون بعض جوانب الضَّعْفِ في أصدقائهم فيتندَرُون بها، أو يتخَيَّرُون خِصْلَةً اشتهر بها الصديق ملائمةً للدعابة فيسخرُون منها، تضخيمًا، أو قلبًا، أو عكسًا، أو يعمدون إلى شيء يعتز الصديق بامتلاكه، وليس في نظرهم جديرًا بهذا الاعتزاز، فيجعلونه مادةً لتندرهم.

وإذا كان الغرض هو الدعابة، فإنها تحتاج إلى مهارة في التعبير، والتصور بحيث لا تؤذي الصديق، ولا تُغض من قدره.

ولقد يبدو في بعضها ما يشبه الإيلام، ولكنها - عند النظرة الفاحصة - من مزاحات الأصدقاء الذين لا كلفة بينهم.

خرج أبو دَلَامَة^(١) مع المهدي^(٢) وبعض حاشيته في رحلة صيد، فعنَّ لهم ظيٌّ، رماه المهديُّ فأصابه، ورماه علي بن سليمان، فأخطأه، وأصاب الكلب الذي معهم، فضحك المهديُّ، وقال لأبي دلامة الشاعر: قل في هذا الذي رأيته، فقال:

قد رمى المهدي ظيًّا شكَّ بالسهم فوَّأده
وعليُّ بنُ سليمان ن رمى كلباً فصَّاده
فهنيئاً لهما كلُّ ل امرئٍ يَأْكُلُ زاده

(*) من كتاب «الفكاهة في الأدب» للدكتور أحمد محمد الحوفي «بتصرف».

(١) أبو دلامة: شاعر عباسي كان كثير الدعابة والسخرية توفي سنة ١٥٩هـ - ٧٧٦م.

(٢) المهدي: ثالث الخلفاء العباسيين توفي سنة ١٦٨هـ - ٧٨٥م.

في هذه الأبيات تمكّم ودعابة، لأن أبا دلالة صورّ الحادثة تصويراً فكّها
ساخراً، إذ فرّق بين الرميّتين، وبين الصيّدين، ثم جعل كلاً من الصائدين يأكل
ما صاد.

قال جحظة البرمكي^(١) في صديق له كان حريصاً على سماع غنائه:
لي صديقٌ مُغزى بقربيّ وشدويّ^(٢) وله عند ذاك وجّة صفيقُ
قوله إن شدوتُ: أحسنت، زدني وبأحسنّت لا يباع الدقيق
وكان أحمد بن حرب المهلبي صديقاً لإسماعيل بن إبراهيم الحمدونيّ الشاعر
الفكه، وكان الحمدونيّ يبادلّه الود، وقد وهب أحمد لإسماعيل طيلساناً أخضر،
فلم يُعجبه، ونظم فيه خمسين مقطوعة شعريّة ذاعت بين الناس، وجعلت
الطيلسان مضرب الأمثال وفكاهة الأجيال.
ومن ذاك قوله:

يابن حرب كسوتي طيلساناً أمرضته الأوجاع فهو سقيمُ
فإذا ما لبسته قلت: سُبْحَا نك، تُحيي العظام وهي رميم
وقوله:

يابن حرب كسوتي طيلساناً ملّ من صُحبة الزّمان وصدّاً^(٣)
طال تردّاده إلى الرّفو حتى لو بعثناه وحده لتهدّى^(٤)
ومرّ يوماً بابن حرب وهو جالس على باب داره، وعلى الحمدونيّ

(١) جحظة البرمكي: شاعر ومغن، اشتهر برواية الأخبار، والنوادر توفي سنة ٣٢٤هـ - ٩٣٦م.

(٢) شدوي: غنائي.

(٣) صد: أعرض.

(٤) تهدى: اهتدى إلى الطريق.

وسادة، فقال له ابنُ حرب:
لأي شيء هذه يا حمدوني؟
قال:

ارفع بها طيلسانك.

فقال ابن حرب:

ما تزال تهجوننا نظماً ونثراً.

وقد حاكى الحمدوني في تندُّره بطيلسانه كثيرٌ من الشعراء؛ قال عبدُ الرحيم

الهلالي ابن حرب:

طيلسانٌ كان رَسَماً ثُمَّ قَدْ أَصْبَحَ وَهْماً

لا تـَـرَاهُ العـَـيـنُ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَهْجَعَ حُلْماً

تَتَعَبُ المَقْلَةُ كَيْ تُنْذِرَ رَكْ مَنَّهُ أَثَرًا مَـا

ومن الشعر الفكاهي قول البهاء زهير في بغلة صديق له:

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَةً

تَقْضِي فَتَحْسَبُهَا العِـوَرُ نَ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَـلَةً^(١)

وَتُخَالُ مُذْبِرَةً إِذَا مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجِلَةً

تَهْتَرُ وَفِي مَكَائِهَا فَكَأْتُمَا هِيَ زَلْزَلَةً

أَشْبَهَتْهَا، بَلْ أَشْبَهَتْ سَكَ كَانَ يَبْنِيكُمْ صِلَةً

تَحْكِي صِفَاتِكَ فِي الثَّقَا لِنَا وَالْمَهَامَةِ وَالْبَلَّةَ

(١) مشكلة: مفيدة.

مراجعته وصححه:

جعفر عبد الله على

م . ا . بقطاع المعاهد الأزهرية

فهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	فضيلة الزهد
١٢	من قضايا العصر
١٦	البيان
٢٥	بلاغة القرآن
٣٠	النصيحة الخالصة
٣٣	مفتاح شخصية علي بن أبي طالب
٤٠	من خطبة له عليه الصلاة والسلام
٤٢	عبد الله بن عباس
٤٦	أدب الزوجة
٤٧	الخيزران ومزنة بنت مروان بن محمد
٥٠	هل تلد الحية إلا الحية ؟
٥٣	غدر اليهود
٦٠	الجهاد الإسلامي وأنواعه
٦٧	سبب مشروعية القتال وأطوار تشريعه
٧٣	التحريم
٧٨	بنو النضير
٨٢	الأحزاب
٨٩	أصحاب الفيل
٩٦	الإنسان القدوة في ذكرى مولده
٩٩	عمرو بن عبيد والخليفة المنصور
١٠٣	عمر بن عبد العزيز
١١٢	آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق
١١٩	عبد الله بن الزبير بن العوام
١٢٢	الأنصار
١٢٧	الزبير رضى الله عنه
١٣٠	صراع
١٣٤	ما لي ولسعيد بن جبیر
١٤١	نصيحة
١٤٤	ما قيل في اللسان والصمت
١٥١	الشعر بضاعة تجدي
١٥٤	لا أفلح قاض لا يقيم الحق
١٥٧	الدعابة